أعلام المسلمين
٤٢



تأليف
محمد علي كاتبي

دار القلم
دمشق

أعلام المسلمين

٤٢



النقيب الشهيد

تأليف

محمد علي كاتبي

دار القلم
دمشق

الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


سعد بن الربيع الأنصاري
النقيب الشهيد

هـذا الرَّجُـل

● «اللّهُمَّ الْقَ سعدَ بنَ الربيعِ وأنتَ عَنْهُ رَاضٍ».

محمدٌ رسول الله ﷺ

● «رحمهُ اللهُ فقد نَصَحَ للهِ ولرسولِهِ، حيّاً وميّتاً».

محمدٌ رسول الله ﷺ

● «اللّهُمَّ أحسِنِ الخلافةَ على تركتِهِ».

محمدٌ رسول الله ﷺ

● «سعدُ بنُ الربيعِ «... رجلٌ خيرٌ مني ومنك...».

أبو بكر الصديق يقولها لعمرَ بنِ الخطابِ

رضي الله عنهم أجمعين

● «أَحَدُ السابقين الأولين من الأنصار وأَحَدُ الفرسان المشاهير».

شيخ الإسلام الإمام ابن حجر رحمه الله



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ الحشر / ٩.

﴿ . . . وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ الأنفال / ٧٤.

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ الأحزاب / ٢٣.



المقـــدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

«ربِّ أَوْزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَليَّ وَعَلى وَالِديَّ وأَنْ أَعْمَـلَ صَالحـاً تَرْضَـاه وأَدْخِلْني بِـرَحْمَتِـك في عِبَـادِكَ الصَّالِحينَ».

الحمد لله الذي أنزل على عبده أقدس كتاب، وأيده بخير الأصحاب. والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ، وعلى آله الطيبين الأطهار، وأصحابه الغرر الأخيار، ومن تبعهم بإحسان.

وأما بعد، فسعد بن الربيع الأنصاري، رضِي الله عنه، علم بارز وقمة شامخة، في تاريخنا الإسلامي الأزهر. تجسّد فيه جِماع الخير، من كرم، وشجاعة، وصدق، ووفاء، وتضحية. ولقد عشتُ مع هذا الاسم الكريم سنواتٍ حافلةً، مُوَشَّاةً بالحبور.

كان ذلك قبل نحو من بضعة أعوام، وقد وقفت طويلاً أمام هذا الاسم السهل الرائع ـ الذي يسترسل منـه التفاؤل والحسن ـ فكان أولَ ما صافحته عيناي، وَرُحتُ أحثُّ مطايا الذاكرة نحوه، فما ساعفتني بشيء ذي بالٍ، إلا أمماً لا يبلُّ صدى، ولا ينقع غلة، فقصدت المكتباتِ، أتحرى ترجمته، فإذا بي أرى

الناس لم يسمعوا به، بَلْهَ معرفته... ولم يكن لدى بعض الخاصة، من العلم عنه، ما كنت أتشوَّفُ له......، فأكمدني ذلك...، ثم فزعت إلى كتب التراجم وأُمّاتها، أتقصّى آثاره من مظانّها، فما زادتني إلا حيرة وصدى، مما كتب عنه مكثراً أو مقلاً.

فالمقلون - رحمهم الله - من ترجمته في كتب الرجال والتراجم، لا يزيدون على قولهم: «صحابي». ومن توسّع، قال: «صحابيٌّ، عَقَبيٌّ، بدريٌّ، استشهد يوم أحد».

وعلى هذا النهج سار معظم الذين أوردوه في تصانيفهم.

وأما المكثرون[1] - رحمهم الله - فلم يخرجوا - كلهم - عن

---

(١) - بدءاً من ١ - الواقدي (محمد بن عمر): ١٣٠ - ٢٠٧ هـ - في (المغازي).

٢ - ابنِ سعد (محمد بن سعد بن منيع البصري، كاتب الواقدي): ١٦٨ - ٢٣٠ هـ في (الطبقات الكبرى).

- أبي نعيم (أحمد بن عبد الله الأصبهاني): ٣٣٦ - ٤٣٠ هـ في (معرفة الصحابة) (مخطوط).

٤ - ابن عبد البر (أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد): ٣٦٣ - ٤٦٣ هـ في (الاستيعاب).

٥ - ابن الجوزي (جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن): ٥٠٨ - ٥٩٧ هـ في (صفة الصفوة).

٦ - ابن الأثير (علي بن محمد): ٥٥٥ - ٦٣٠ هـ في (أسد الغابة في معرفة الصحابة).

٧ - الذهبي (محمد بن أحمد): ٦٧٣ - ٧٤٨ هـ في (سير أعلام النبلاء).

٨ - الحافظ ابن حجر (أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي): ٧٧٣ - ٨٥٢ هـ في (الإصابة).

وغيرهم... رحمهم الله، وجزاهم خيراً.

تكرار روايات محدودة وترديدها. . . وقد ورد ذكر سعد بن الربيع رضي الله عنه وشيء من أخباره في تضاعيف كتب التاريخ والسير. . . عند الطبري في تاريخه وعند ابن كثير ـ رحمه الله ـ في البداية والنهاية مستلة من سيرة ابن هشام ـ رحمهم الله جميعاً ـ وكلها لا تخرج عما سبق. . .

وفحواءُ كلِّ تلك الروايات، التي ساقها جمعهم، تدور حول موقفين اثنين، في حياة الصحابي الجليل سعد بن الربيع الأنصاري، رضي الله عنه. . . ؛ مشهد الإخاء، وما تجلّى فيه من سخاء وأريحيّة، وبحركة سريعة، تقفز الروايات إلى استشهاده يوم أحد، وما قاله وهو في النزع الأخير. . .

وتتعدد طرق الروايات، وكلها تفضي إلى هذين الموقفين العظيمين. . . ، فالجود والكرم. سجيته، والشجاعة والبسالة خليقته. . . رضي الله عنه.

ورحت أقرأ تلك الروايات بتمَّعُن، وأتملاّها باستقصاء، وما زلت أدور حولها، وأرجع البصر فيها كرة بعد أخرى. . . حتى تكشّفت ـ في ذهني ـ حياة هذا البطل العظيم، فرأيتها ماثلة بين يدي.

ومن ذلك الحين، وحياة هذا الصحابي الجليل تعتمل في نفسي، وتجول في خاطري، وأنا تائق أن يراها الناس، كما أراها، علّنا نترسم خطاها. . . ؛ ـ لِما حفلت به من صدق، وصبر، وشجاعة، وشهامة، وفضل، وسخاء، ثم إكرام من الله ـ عز وجل ـ لها بالشهادة. . . وحسن الخاتمة مع النصح لله ولرسوله.

ولكن كيف والطريق شاقة وعرة، لا معالم فيها، ولا صوى. . .
إنها بيداء مجهلة، مخوفة، فكنت أخشى أن أضلَّ؛ فأنكص وأحجم. . . ثم أعاود النظر في تلك الشذرات من سيرته، والنتف من العلم عنه، ثانية فتنشط نفسي بعد ما جبنت. . .، حتى صحَّ عزمي ـ بعد أن استخرت الله عز وجل، واستعنته فيما أنا ماضٍ في سبيله ـ فبدأت عملية التتبع الدقيق والاستقصاء الشديد في آثار أولئك القوم الكرام، فكنت أقرأ الساعات الكثيرة، والصفحات العديدة، بغية الحصول على أثر من خبره. . .، فإذا وقعتُ على شيء من أمره، طرت به فرحاً، ثم أسرعت فأوثقته في أوراقي.

وقد سلخت عُمُراً من عُمُري في تلك المرحلة فلما ظننتُني حويت طائفة صالحة من أخباره تمكنني أن أُؤَلِّف فيما بينها. . . لإخراج هذه الحياة إلى الحياة. . . أفضيت بعزمي إلى بعض الأحبة والفضلاء، فمنهم من بارك سعيي وشدَّ على يدي، ومنهم تحيَّر إشفاقاً عليّ، وضناً بي عن تجشم الصعوبات؛ فالمصادر شحيحة والأخبار نتف قليلة[١].

ومضيت في مفاوزي، فأعان الله وسهل ـ فله الحمد والثناء ـ، حتى وصلت ـ فيما أرجو إلى رضا الله ـ في الكشف، عن حياة صحابي جليل كثير التضحيات قليل الذكر بين الناس. . . . وليس بضارّه ذلك فهو ـ رضي الله عنه ـ إنْ كان هنا الجنديَّ

---

(١) قلة أخباره تعود ـ في رأيي ـ لتقدم استشهاده أولاً ولعدم الرواية عنه ثانياً.
والله أعلم.

المجهولَ، فهو ـ عند الله ـ الشهيدُ الحي، تسرح روحه الطاهرة وتمرح آمنة جذلانة، ثم تأوي إلى عرش الله ـ جلّ جلاله ـ تتعلق به.

وقد كَسَرت هذه الدراسة ـ المتواضعة ـ على تمهيد وأربعة فصول وخاتمة تكلمت في التمهيد:

١" ـ على الصحابة عامة؛ تعريفهم، فضائلهم، عدالتهم، تضحياتهم.

٢" ـ ثم على الإسلام قبل الأنصار وصدود قريش عنه واضطهادهم المسلمين في مكة ثم التماس النبي ﷺ النصرة من غير قومه وتعرضه للقبائل فكان إسلام الأنصار.

وكان قصدي من التمهيد على وجازته ـ أن يكون توطئة جامعة لما يليها من إسلام الأنصار والهجرة إليهم ـ رضي الله عنهم ـ وبروز سعد بن الربيع فيهم، لتكون الدراسة مترابطة.

وقد أفردت الفصل الأول عن شخصية سعد وقومه. وتحدثت فيما تلا من فصول عن نسبه وأسرته، ثم إسلامه، ثم جهوده في حقل الدعوة، ثم كونه نقيب قومه. ثم تحدثت عن سعد بعد الهجرة، وعن دياره، ومكانتها واستقباله النبيَّ ﷺ، ثم عن الإخاء في الله وأريحيته الفذة ـ رضي الله عنه ـ ثم جهاده في بدر وصدقه في أحد واستشهاده. ثم تحدثت عن مكانته وبعض مناقبه، ثم ما رُويَ عنه من أحاديث ـ وما فيها من كلام. وقد حاولت استخلاص ما يمكن من العبرة من حياة هذا الصحابي الجليل من خلال حديثي عنه حتى ختمت قولي بكلمة موجزة ملخِصة.

وبعد: فهذه الكلمات ـ المتواضعة ـ أول دراسة مستقلة ـ فيما أعلم ـ عن حياة هذا الصحابي البطل. توخيت فيها الدقة، وصحة الأخبار، ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. وقد وثّقت كل حادثة أو رواية، فذكرت مصدرها... فلم يكن فيها مما لم يُروَ إلا ما تجاوزته الروايات، فكان لا محيد عن ذكره، لاستكمال تفاصيل الصورة، وجزئياتها.

وقد وشّيت هذه السطور ببعض الأبيات الشعرية لأن المقام ـ رأيتُ ـ يستدعي ذلك، والشعر ـ على كل حال ـ ديوان العرب.

ولا أنسى قبل أن أضع القلم، أن أختم كلمتي ـ هذه ـ بالثناء على الله عز وجل ـ كما بدأتها ـ فله الحمد في الأولى والآخرة. ثم أُسدي الشكر ـ جزيلاً ـ لكل من ساهم في هذه الصفحات من إبداء رأي أو تسديد فكرة...

وجزى الله «دار القلم» خيراً كِفاء جهدها المشكور في نشر سير «أعلام المسلمين».

والله تعالى أسأل؛ أن يُفسحَ لهذا الجهد ـ المتواضع ـ مكاناً في سجل قَبوله، وأن يجعله خالصاً له، نافعاً به، لي، وللمسلمين.

﴿رَبَّنا لا تُؤَاخِذْنا إِنْ نَسِينا أو أَخْطَأْنا﴾ وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المدينة المنورة: ٤/٣/١٤١٢ هـ.

وكتبه

محمد علي كاتبي

خُطَّةُ البحث

التمهيد : أ ـ الصحابة.

ب ـ الإسلام قبل الأنصار.

الفصل الأول : شخصية سعد بن الربيع.

المبحث الأول: بيئته...

المبحث الثاني: قومه...

المبحث الثالث: نسبه وأسرته.

الفصل الثاني : جهوده في حقل الدعوة.

المبحث الأول: مقدمة في إسلامه.

المبحث الثاني: الدعوة والنقيب والبيعة.

المبحث الثالث: سعد بعد الهجرة؛ دياره والإخاء في الله.

الفصل الثالث : جهاده واستشهاده.

المبحث الأول: بلاؤه في بدر.

المبحث الثاني: أُحُد؛ الملحمة الكبرى.

المبحث الثالث: استشهاده رضي الله عنه.

الفصل الرابع : مكانته ومناقبه.
المبحث الأول: منزلته ومناقبه.
المبحث الثاني: فيما روي عنه من أحاديث.
الخاتمة.
المصادر والمراجع.

سعد بن الربيع بن عمرو بن أبي زهير / معرفة الصحابة لأبي نعيم

(الصفحة الأولى من المخطوطة)

٢٧٢

حدثنا حماد أنبأنا ثابت [illegible] في الأموات

قال فإني في الأموات أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عني السلام وقال إن سعد بن الربيع يقول جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته

حدثنا سليمان بن أحمد ثنا مصعب [illegible] ثنا إسماعيل بن قيس عن أبيه عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد

بن الربيع أنها دخلت على أبي بكر الصديق فألقى لها ثوبه حتى جلست عليه فدخل عليه عمر بن الخطاب فقال من هذه

يا خليفة رسول الله قال هذه ابنة من هو خير مني ومنك قال ومن هو خير مني ومنك إلا رسول الله قال أبو بكر رجل قبض

على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوأ مقعده من الجنة وبقيت أنا وأنت. حدثنا أحمد بن يوسف ثنا [illegible]

حدثنا محمد بن كثير ثنا سفيان عن حميد الطويل سمعت أنس بن مالك قال قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة فآخى النبي

صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري وعند الأنصاري امرأتان فعرض عليه أن يناصفه أهله

وماله فقال له عبد الرحمن بارك الله لك في أهلك ومالك دلوني على السوق. رواه يحيى بن سعيد والليث بن سعد

وإسماعيل بن جعفر ومعتمر بن سليمان وعدي بن الفضل ويحيى بن قيس ويزيد بن هارون وأزهر بن سعد وآخرون عن حميد

ورواه ثابت عن أنس مثله. حدثنا سليمان بن أحمد ثنا أبو يزيد القراطيسي ثنا أسد بن موسى ثنا حماد بن زيد عن ثابت

البناني عن أنس بن مالك قال لما قدم عبد الرحمن بن عوف المدينة آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين سعد بن الربيع وكان لسعد

امرأتان وحائطان فقال سعد لعبد الرحمن اختر أي امرأتي شئت أنزل لك عنها واختر أي حائطي شئت فقال بارك الله

لك في امرأتك ولا حائطك ما لهذا أتيتك ولكن دلني على السوق فدله " (معرفة الصحابة)

نموذج لترجمة سعد بن الربيع، رضي الله عنه من كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصفهاني (رحمه الله) وما زال مخطوطاً. إلا أول ثلاثة أجزاء. ولم يصل لحرف السين. وهذه من التراجم الطويلة له.

التمهيد

أولاً: الصحابة.

ثانياً: الإسلام قبل الأنصار.



أَوَّلاً

الصَّحَابَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ

الصحابي لغة: مِنْ صَحِبَهُ، يَصْحَبُهْ: عَاشَرَهُ. والصَحْبُ جمْع صاحِب. والصاحِبُ: المعاشِرُ...

ويقال: أَصْحَابٌ، وأَصاحِيبُ، وصُحْبَانٌ، وصِحابٌ. وصَحابة[1] وكل شيء لاءَم شيئاً فقد استصحبه[1].

اصطلاحاً: توسع العلماء؛ الفقهاء والمحدثون في تعريف الصحابة توسعاً، وشعَّبُوا تفريعاتهم... إلى مدى بعيد جداً[2]....

ولعل أجمع تعريف للصحابي وأوجزه وأدقه:

«هو من لقيَ النبيَّ ﷺ، يقظةً، مؤمناً به، بعد بعثته حال حياته، ومات على الإيمان». [3].

---

(١) انظر: لسان العرب ١/٥١٩، أساس البلاغة ٢٤٩، مختار الصحاح ١٥٠، القاموس المحيط ١/٩٥.

(٢) انظر: أصول الحديث د. محمد عجاج الخطيب ٣٨٥ ـ ٣٨٦، الإصابة ١/٧.

(٣) الشيخ عيادة الكسيبي، صحابة رسول الله ﷺ في الكتاب والسنة ٣٩ وما بعدها.

والصحابة هم: أولئك النمط المثالي الفريد، الذي أكرمه الله سبحانه، وشرّفه بالاتصال بسيد الخلق، وحبّب إليه الإيمان، وزينه في قلبه، وكرّه إليه الكفر والفسوق والعصيان... ﴿أولئك هم الراشدون﴾، ولقد أثنى الله ـ جل جلاله ـ على الصحابة الكرام، ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ، في كثير من الآيات الشريفة، في كتابه العزيز، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ولا من خلفه.

ووجود مثل هذا الجيل كان حُلُمَ الإنسانية من قديم عهدها، وإلى يوم الناس هذا وإلى أن يرث الله الأرض. ولم يتحقق إلا مرة واحدة على عهد رسول الله ﷺ فكان ذلك الرعيل الكريم صحبه...

أين كان أولئك النفر؟ «وكيف تكوّنوا على حين غفلة من الأمم؟ وما هذه الرسالة، التي يحملونها؟ وكيف نجحت؟ وما وسائل نجاحها؟ سلسلة من الأسئلة لا يكاد الناس يتساءلون بأولها حتى يفاجأوا بما ينسيهم تاليه أولّه. إلى أن رأوا من صفات هذه الأمة المثالية ما أيقنوا أنها تحمل إلى الإنسانية رسالة الحق، والخير، وأنها تترجم رسالتها بأخلاقها، وسيرتها، وأعمالها، وأنَّ الذي اعتقدته وتخلّقت به، ودعت الأمم إليه هو الحق الذي قامت به السموات والأرض».

«وأول ما نعلمه ونؤمن به من أسباب الكمال في هذا الجيل المثالي؛ أنه تلقى تربيته على يد معلم الناس الخير خاتم رسل الله المبعوث بأكمل رسالات الله، (ﷺ)»[1]...

(١) محب الدين الخطيب، المنتقى من منهاج الاعتدال ٥٩٧.

فمواقف هذا النموذج الفريد متعددة وبالغة السمو، ويكاد كل واحد من هذا الجيل الكريم يمتاز بمكرمة تجعله علماً بين الأمم، فمآثرهم وفضائلهم تطفح بها كتب السنن والسير والتاريخ - وتفيض -، ناهيك عن الطبقة الأولى منهم، وكلاًّ وعد الله الحسنى.

وكما اختار الله محمداً ﷺ لأكمل رسالاته، وآخرها، اختار كذلك العربية لكتابه الحكيم، لأنها أكمل اللغات، وأغناها. واختار - كذلك - لرسوله أصدق الأمم وأكرمها معدناً، وأجمعها للصفات التي تكفل نجاح هذه الدعوة. وتقوى بها على حمل هذه الأمانة فكانت بها ﴿خيرَ أمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس﴾[1].

وقد دعت إلى الإسلام بسيرتها، وأخلاقها، وتصرفاتها، فتعرفت الأمم إلى الرسالة المحمدية، بما رأت العيون من سيرة الصحابة، أكثر مما سمعته الآذان[2].

وخليق بهذا الطراز الفذ أن يكون أهلاً لإطراء المولى سبحانه وتعالى، فيفيض عليه من الثناء والإشادة ما أفاض... فكان ﴿خيرَ أمةٍ أُخْرِجَتْ للناس﴾ آل عمران / ١١٠.

وهم المؤمنون حقاً والمغفور ذنبهم ﴿والذينَ آمنوا وهَاجَروا، وجَاهَدُوا في سبيل اللهِ، والذين آوَوا ونَصَروا، أُولَئِكَ هُمُ المؤمنونَ حقاً، لَهُمْ مغفرةٌ وَرِزْقٌ كَريمٌ﴾ الأنفال / ٧٤.

---

(١) سورة آل عمران آية: ١١٠.

(٢) محب الدين الخطيب، فصل ختامي، المنتقى من منهاج الاعتدال ص ٥٩٨.

﴿وإِنْ يريدوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فإِنَّ حَسْبَك اللهُ، هو الـذي أَيَّدك بِنَصْرِه وبالمؤمنين﴾ الأنفال / ٦٢.

وهم الصـادقون في هجـرتهم، وتضحياتهم، وإيـوائهم، ونصرتهم، وهم الكرام الأسخياء، المؤثرون على أنفسهم... وهم المفلحون... وهم إخوان الصدق والإيمان...، وهم ﴿الذين استجابوا للهِ والرسولِ...﴾ آل عمران / ١٧٢.

وهم الذين ﴿أنزلَ الله في قلوبهمُ السكينةَ..﴾ وهم المرضيُّ عنهم ﴿لقد رضيَ اللهُ عن المؤمنين إذ يُبايِعُونك تَحتَ الشجرةِ فَعَلِمَ ما في قُلوبِهم، فَأَنْزَلَ السَكِينَةَ عليهم وأَثابَهُمْ فتحاً قريباً﴾ الفتح / ١٨ ـ ١٩.

وهم المؤمنون الذين ألزمهم الله ﴿كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها﴾[١] الفتح / ٢٦.

وهم، رضي الله عنهم، الساجدون، العابدون، الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، المسارعون في الخيرات، وأولئك هم الصالحون... الراشدون الفائزون، الصادقون، أهل التوبة، والرحمة، أهل التقوى وهم الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه[٢]...

وكما أبـان القـرآن الكـريم فضلهم، وأشـاد بمـواقفهم العظيمة... وبطيب نياتهم، وصدق عزائهم، وحسن بلائهم،

---

(١) انظر: التفسير الكبير، للإمام الرازي ١٠٣/٨، وصفوة التفاسير، محمد علي الصابوني ٢٢٢/٣.
(٢) منزلة الصحابة في القرآن، لمحمد صلاح الصاوي ص ٢ ـ ١٣.

وأعلن رضا الله عنهم، ومضى يبشرهم بالمغفرة، والرزق الكريم والنعيم المقيم ﴿إخواناً على سُرُرٍ متقابلين...﴾ إلى غير ما ورد في حقهم في كتاب الله، فكذلك عرف لهم حبيبهم المصطفى ﷺ صدقهم وإخلاصهم وحبهم فبادلهم حباً بحبّ حتى قال أبو سفيان (رضي الله عنه) واصفاً حبَّ الصحابة حبيبهم ﷺ:

«ما رأيت أحداً يحب أحداً كحبّ أصحاب محمدٍ محمداً»[1].

وعبقت كتب الصحاح والسنن بطيوب شمائلهم وشذا فضائلهم، وأريج سيرهم رضي الله عنهم.

وما سعد بن الربيع، إلا مثلٌ فذٌّ، من أولئك الأخيار، الأبرار، الأطهار، الذين جادوا بأرواحهم لنصرة دين الله وإعلاء شأنه والذود عن حياضه ولنلتقط شذرات من معدن النبوة في بيان مآثر القوم الكرام... فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً، ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه»[2]. وينص المصطفى الكريم أن الله تعالى ينصر جيوش الفتوحات الإسلامية ببركة وجود الصحابة الكرام[3]...

وأصحاب رسول الله ـ خير القرون، فقد تشرفوا برسول الله

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٤/٦٧.

(٢) التجريد الصريح ١/٥٧. وفي صحيح مسلم ما يشبه هذا اللفظ.

(٣) البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي - ﷺ - ٢/٢٨٧، ومسلم فضائل الصحابة ٤/١٩٦٢، انظر صحابة رسول الله للكسيبي ص ١٦٢.

وهم أَمَنَةٌ لأمة محمد ﷺ. «... وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون»[1]...

هؤلاء هم أصحاب محمد ﷺ... فمن آذاهم فقد آذى النبي، ومن آذى النبي «فقد آذى الله، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه»...

«رواه الترمذي»

فهل بعد هذا التشريف شرف، وهل فوق هذه المنزلة منزلة تسمو إليها نفوس البشر اللهم إلا الأنبياء، وهذا في الحقيقة غيض من فيض ما تفاوحتْ به السنّة الغرّاء من محاسن ومناقب وتقدير أولئك الأَخيار.

وما قالوه في بعضهم بعضاً من التوقير والتقدير، كلٌّ حسب رتبته فذاك أمر رائع، مبعثه الحب والإيثار في نفوسهم... فعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: «من كان مستنّاً فليستنَّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا خير هذه الأمة، أبرها قلوباً وأعمقها علماً، وأقلّها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ ونقل دينه، فَتَشَبَّهُوا بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهدي المستقيم. والله ربّ الكعبة»[2] وكثرت مثل هذه النصوص عنهم كثرة فائقة[3].

---

(١) مسلم، كتاب فضائل الصحابة ١٩٦١/٤، وانظر: الكسيبي، صحابة رسول الله ص ١٦٣.

(٢) حلية الأولياء ٣٠٥/١ ـ ٣٠٦ وما بعدها.

(٣) انظر: الإصابة ١١/١ ـ ١٢، وحلية الأولياء ١٥٠/٢، وإلقام الحجر، للسيوطي ٥٨، وراجع الباعث الحثيث /٩٤ وما بعدها.

وروى البيهقي عن الإمام الشافعي ـ رحمهما الله ـ أنه قال: «وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله ﷺ، في القرآن والتوراة والإنجيل، سبق لهم من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله وهنّاهم بما آتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، هم أدَّوا إلينا سنة رسول الله ﷺ، وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله ﷺ، عامًّاً وخاصاً وعزماً وإرشاداً، وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل، اسْتُدْرِك به واسْتُنْبط به، وآراؤهم لنا أحمد، وأولى بنا من آرائنا لأنفسنا والله أعلم»(١).

وإذا كان السابقون الأولون، من المهاجرين والأنصار، إلى بيعة الرضوان مقطوعاً، على غيب قلوبهم، أنهم كلهم مؤمنون، صالحون، ماتوا كلهم على الإيمان، والهدى والبر، كلهم من أهل الجنة... لا يليق بمؤمن أنْ يمتريَ في ذلك فكذلك الذين وَعَدَ الله الحسنى ممن تلاهم من إخوانهم أصحاب رسول الله ﷺ، فإنه تعالى «لما وعد السابقين والمحسنين بالثواب فلا بدَّ وأن(٢) يكون عالماً بالجزئيات، وبجميع المعلومات، حتى يمكنه من إيصال الثواب إلى المستحقين، إذ لو لم يكن عالماً بهم، وبأفعالهم على سبيل التفصيل، لما أمكن الخروج من عهدة الوعد بالتمام، فلهذا السبب أتبع ذلك الوعد بقوله: ﴿والله

---

(١) مناقب الشافعي ١/٤٤٢.
(٢) كذا وجدتها ولعل الواو مقحمة، والأولى: فلا بدَّ أن، والله أعلم.

بما تعملون خبير﴾[1] وحُق لهم ـ والله ـ كل ذلك التشريف. . . ، ونيل تلك المكانة لما بذلوا من دنياهم في سبيل الله، وإعلاء كلمته، ونصرة نبيه عليه الصلاة والسلام، ولما استرخصوا في ذلك مهجهم الكريمة فضلاً عن أموالهم، في إرساء صرح الإسلام، والذود عنه، ومجاهدة الكفار، ونشر الدين:

أولئك قومٌ أَتْلَفُوا مُهَجَاتِهم
لإحياءِ دينِ اللهِ بالطعنِ والضرب
غُيوثٌ إذا أَعطَوا، لُيوث إذا التقَوا
مُعَانُون، منصورون بالرهب والرعب[2]

وكل ذلك قليل في حقهم رضي الله عنهم، لما لهم الهجرة، والجهاد، والنصرة والإيواء، ولِمَا نالهم ﴿فما وَهَنُوا لما أصابَهم في سبيلِ اللهِ، وما ضَعُفُوا وما استكانوا. . .﴾[3] ولِما انساحوا في الآفاق تاركين الأهل، والمال، والوطن، . . . يحدوهم إيمان صرف، مقدّمين أروع الأمثلة لأروع ما يمكن من بشر، رهبان في الليل، فرسان في النهار. . . لا تأخذهم في الله لومة لائم. . حتى لقد قتلوا ـ في الله ـ أقرب الناس إليهم[4]. . . أخرجوا العالَمَ من الظلمات إلى النور بإذن ربهم، وبما قدّموا من نماذج

---

(١) الإمام الرازي، التفسير الكبير ٢٩/ ٢٢٠، وانظر: الإصابة ١/ ١٠.
(٢) البلوى، ١/ ٤٤١ (بتصرف).
(٣) سورة آل عمران آية: ١٤٦.
(٤) انظر: الإصابة ١/ ١٠.

عمليّة... فكم قاسوا وكم عانوا حتى أدّوا إلينا شرع الله، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء...

قال الحافظ أبو بكر ابن الخطيب البغدادي: «والأخبار في هذا المعنى تتسع، وكلها مطابقة، لما في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة، والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحدٌ منهم ـ مع تعديل الله تعالى لهم، المطلع على بواطنهم ـ إلى تعديل أحد من الخلق... أخبرنا أبو منصور محمد بن عيسى الهمذاني، حدثنا صالح بن أحمد الحافظ قال: سمعت أبا جعفر أحمد بن عبدل، يقول: «إذا رأيتَ الرجلَ ينتقصُ أحداً من أصحاب رسول اللهِ ﷺ فاعْلمْ أنَّه زنديق، لأن الرسول ﷺ عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدَّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى وهم زنادقة»[١].

وسنرى فيما يتلو من صفحات، صوراً مشرقة، لفرد عظيم من ذلك الرعيل العظيم، صورة رجلٍ أعزه الله بالإسلام، وأكرمه بالإيمان وكرمّه بالبيعة فمست كفُّه كفَّ رسول الله ﷺ، وشرّفه بالصحبة، واصطفاه لنصرة دينه، ونبيه، ثم كلله بتاج الجهاد فاتخذه شهيداً، وبوأه أعلى مقام، ومنحه أرفع وسام.

ذلكم سعد بن الربيع الأنصاري، رضي الله عنه وأرضاه.

---

(١) محب الدين الخطيب، مقدمة العواصم من القواصم / ٣٤.

صفحة من الشعر:

وجوهُ أصحابِه كالدرِّ مشرقةٌ
إذا رأيتَ امرءاً عن هديهم صُرفا
نالوا السيادةَ، في دنـيا وآخرةٍ
والسبقَ والفضلَ والتقديم والشرفا
وبالرضا خُصَّ منهم عشرةٌ زُهُرُ
يا ويحَ مَنْ في موالاةٍ لهمْ وَقَفا
سعدٌ، سعيـدٌ، زبيرٌ، طلحةٌ، وأبو
عبيدةَ، وابنُ عوفٍ، قَبله الخُلَفَا
والسابقون الأُولى قد هاجروا معه
وما بفضلٍ لأنصارِ النبي خَفَا
تبؤوا الدار، والإيمان، قبلُ وقد
آووا، وفوا، نصروا، فازوا، رقوا شُرُفا
المؤثرون، وإن لاحت خصاصتُهم
على نفوسِهِمُ العافين والضُعفا
الضاربون وجوهاً أقبلتْ غضباً
والتاركون ظهوراً أدبرتْ أَنَفَا
لا يستوي منفقٌ من قبلِ فتحهمُ
بمنفقٍ بعدُ، بالإنفاقِ قد خَلفَا
والكلُّ قد وعد الله المهيمن بالـ
حُسنى، وأولاهُمُ من بره تُحفا

من كل أروَعَ حامي الدين ناصرِه
وكل أورَعَ يُدعى سيِّدَ الطُرَفا
لا تسـألنَّ القـوافي عـن مـآثـرهـمْ
إن شئـت فاستنطِق القرآن والصُّحُـفا[1]

* * *

(١) ديوان الحافظ ابن حجر ١٤ ـ ١٥.

ثانيًا

الإسلام قبل الأنصار

- ١ -

﴿وما أَرْسَلْنَاكَ إلاَّ رَحْمَةً للعَالَمِينَ﴾[1].

كـان الأنـامُ جميعـاً قبـل مبعثِـه
على شَفَا جُرُفٍ هارٍ فعاد شِفا[2]

بُعث محمد بن عبد الله (ﷺ)، والعالم أحوج ما يكون إلى نبي مرسل لينتشـل الإنسانيـة، من وهدة الضـلال، والآثام والضياع، ولينقذها من تلك الوهاد التي تردت فيها. . . وشاء الله عز وجل ـ أنْ يكون مبعثه ـ ﷺ ـ فـي غمار الشرور الآنفة ـ في مكةَ . . . البلدِ الأولِ الذي عُبد اللهُ وحدَه فيه ـ فكانتْ بعثته استجابة لدعاء النبيَّين الجليلين إبـراهيمَ وإسماعيـلَ عليهما السلام. . . ﴿رَبَّنا وابْعَثْ فيهمْ رسُولاً منهُمْ، يَتْلُو عليهم آياتِكَ ويعلِّمُهمُ الكتابَ والحكمةَ ويزكّيهم. . .﴾[3].

---

(١) سورة الأنبياء آية: ١٠٧.

(٢) ديوان الحافظ ابن حجر ١٣.

(٣) سورة البقرة آية: ١٢٩.

وبقي أولاد إسماعيل عليه السلام وأحفاده على ملة أبيهم وجدهم إبراهيم مع ما يحدث فيهم من ميل تدريجي عن الحنيفة، حتى انحرف بهم عمرو بن عامر (ابن لحي) الخزاعي، حيث عبّدهم الأوثانَ والأصنام. وما زال انحرافهم مستمراً حتى صاروا إلى ما انتهوا إليه إبّان مبعثه ﷺ ـ على نَزْر نادر من بقية الحنيفة السمحة... ويسير من الخلق الكريم ولكن بنيّةٍ زائفة. ولقد وصف جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، ما كانت عليه العرب قبل الإسلام؛ «... كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونُسيء الجوار... فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نَسَبَه، وصدقه، وأمانته، وعفافه...»[1].

ولقد لخصت لنا كلمةٌ واحدة جامعة مانعة في كتاب الله تعالى كل ما كان عليه الجاهليون فجمعته كلمة الغفلة حيث يقول الله تعالى: ﴿لِتُنْذرَ قوماً ما أُنْذِرَ آباؤهُمْ فَهُمْ غافلون﴾[2].

---

(١) من حديث الصحابي الجليل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام النجاشي ملك الحبشة وانظر: سيرة ابن هشام ١/٣٤٩، ومختصر تفسير ابن كثير، للصابوني ٢/٥٧٠، ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي:

أتيتَ والناسُ فوضى لا تمرُّ بهم	إلا على صنمٍ قد هام في صنمِ
والأرضُ مملوءةٌ جَوْراً مسخرة	لكل طاغية في الخلق محتكم
والخلق يفتك أقواهم بأضعفهم	كالليث بالبهم أو كالحوت بالبلم
....	....

والبلم: صغار السمك، الشوقيات ١/١٩٨.

(٢) سورة يس آية: ٦.

﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رسولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ، عزيزٌ عليه مَا عِنتُمْ، حريصٌ عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ التوبة / ١٢٨.

وسط دياجي تلك الظلم المدلهمة، انبثق نور الإسلام، وسطع هديُ رسول الله ﷺ وهبَّ يرسل رعشات نور وحي الله بتؤدة ورفق. . .

«وكما تطلع الشمس بأنوارها فتفجّر ينبوعَ الضوء المسمى النهار، يولد النبي، فيُوجِدُ في الإنسانية ينبوعَ النورِ المسمى بالدين، وليس النهار إلا يقظة الحياة، تحقق أعمالها، وليس الدين إلا يقظة النفس تحقق فضائلَها. . .»[1] ﴿وإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إلى صراطٍ مستقيمٍ. . .﴾[2].

نشأ النبي ﷺ في غمرة ذلك المجتمع المثقل بكل ما عرفنا. . .، ولكنَّه كان يرى نفسه غريباً عنه فلم ينغمس فيما انخرط قومه فيه وأسفُّوا. . . فشب ﷺ في حياطة الله من عادات قومه، ووقايته من أدران الجاهلية، وعصمته مما ارتكس فيه أنداده، فلا جرم أن تبوأ بين قومه أعزَّ مكانة، وأسمى منزلة، وأرفع رتبة، لِمَا اصطنعه الله على عينه. . . وبرأه في أحسن خلق، وأتمّ فضل، وأشد حياء، وأصدق قول، وأحسن لفظ، وأسلم قلب، وأعظم مروءة. . . ﷺ «يُحَسِّنُ الحسنَ ويقويه،

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم ٢ / ٥.

(٢) سورة المؤمنون آية: ٧٣ ـ وانظر: الرازي، التفسير الكبير، الصابوني، مختصر تفسير ابن كثير ٢ / ٥٧٠ ـ ٥٧١.

ويقبّح القبيح ويوهيه... لا يُؤْيِس راجيه، ولا يُخيّب عافيه...»[1].

هذه بعض نفحات الله لحبيبه ومصطفاه ﷺ، مع ما كان يحمل بين جوانحه الطاهرة من إشفاق وتألم، لما عليه قومه... فَحُببت إليه الخلوة يتفكر... ويتدبر حتى أكرمه الله بإبلاغ آخر رسالاته إلى الإنسانية كافة لتنعم بهداية الله عز وجل، ولتتطهر من أوضار الحمأة التي ارتدغت فيها بَعْدَ غفلة عميقة...

﴿آلر، كتابٌ أَنْزَلْنَاهُ إليكَ لِتُخْرِجَ الناسَ من الظلماتِ إلى النورِ، بإذن ربهم، إلى صراطِ العزيزِ الحميد...﴾[2]

- ٣ -

كان محمد (ﷺ) قبل البعثة، من أحبّ الخلق إلى قومه، ومن أصدق الناس عندهم، فكانوا يجلونه ويكبرونه، ويأتمنونه على أنفس ما لديهم، حتى لقد سموه (الصادق، الأمين)، لما تحلى به من فضائل الأخلاق، ونبيل الصفات، وطهارة النفس، وحلو الشمائل... فما هو إلا أن عرض عليهم الإسلام، حتى تَجَهَّموا له، فاستحالت مودتهم مبغضة ومقتاً، ونابذوه العداوة، ورمَوه بكل منقصة وتهمة... وتَفَنَّنوا في إيذائه وإيذاء مَنْ تبعه... فلقيَ - ﷺ -. من الأذى والسوء - ومَنْ معه - من قريب قومه وبعيدهم ما لقي[3].

---

(١) مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، الإنسانية العليا ٢/٣٨.

(٢) سورة إبراهيم آية: ١.

(٣) للوقوف على معاناة النبي ﷺ - وصحبه الكرام - رضي الله عنهم انظر: =

وتواصت القبائل أن تنال كل واحدة ممن أسلم من أفرادها حتى ترده عن إسلامه إن استطاعت.

وما لقيه المستضعفون ممن أسلم، أعظمُ من أن يوصف، وما احتملوه تنوء به شُمُّ الراسيات.

وكتدبير وقائي ـ مؤقت ـ وحفاظاً على القاعدة المسلمة وحمايتها من الفتنة أو الإبادة... أَمَرَ النبي ﷺ المسلمين بالهجرة إلى الحبشة. وقد أَمِنَ المسلمون هناك على دينهم وأرواحِهم وعقيدتهم وتذكروا ما كانوا يعانونه من الاضطهاد، وما كانوا يقاسونه من أنواع المحن وألوان البلاء... وتمنَوا لمن لم يكن معهم أن ينعم مثلهم[1].

لكنَّ ديدن الكفر ـ قاتله الله ـ ونحيزته ألا يقرَّ له قرار، إنْ نَعَمَ المسلمون بطيب مقام... ليتفرغوا لدينهم ودنياهم...، فما إنْ علم المشركون بمآل المسلمين الناعم... يعبدون ربهم، دون رَهق، حتى بعثوا وفودهم في محاولة لئيمة ماكرة إلى النجاشي، لعله يُسلّمهم المسلمين، أو يُخرجهم من بلاده... ولكن الله

= التجريد الصريح ٢/٦٣ ـ ٦٤، سيرة ابن هشام ١/٣٠٢ وما بعدها، سيرة الندوي ١٠٥ وما بعدها، البداية والنهاية ٣/٤٧ وما بعدها.

(١) وفي ذلك يقول عبد الله بن الحارث مُحَدِّثاً بما منّ الله عليهم من الأمن والراحة في الحبشة:

... أنّا وجدنا بلاد الله واسعة تنجي من الذل والمخزاة والهون

ويدعو المسلمين إلى الهجرة إلى الله:

فلا تقيموا على ذلّ الحياة وخز ي الممات وعيب غير مأمون...

سيرة ابن هشام ١/٣٤٣ ـ ٣٤٤.

ردهم بغيظهم خزايا . . . لم ينالوا خيراً . . فاشتد حقدهم وحنقهم على النبيّ وصحبه . . فقاطعوا المسلمين وضيّقوا عليهم الحصار . . . ويشاء الله أن تمضي المحنة إلى نهايتها . . . فيموت عم النبي ﷺ وزوجته خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها في عام واحد . . . فيفقد النبي كثيراً مما كان يجد من النصرة وحسن العشرة، والتخفيف، ولكن ليقضيَ اللهُ أمراً كانَ مفعولاً . . .

فلما رأى - ﷺ - أنَّ قومه - في مكة - قد أصمّوا آذانهم عن صوت الحق وأعموا أبصارهم عن نور الهدى . . ، رجا أن يجد عند ثقيف - في الطائف - النصرة، والإيواء، والعون . . حتى يؤدي رسالة ربه، إلى الناس كافة.

فتوجّه إلى الطائف . . ولكنَّ القوم - هناك - خذلوه، وخيّبوه، وردُّوه بأقبح ردّ.

وعاد النبي ﷺ إلى مكة ليجدَ قومه أشدَّ ما كانوا عليه وأغلظَ، فلم يَدَعُوا سبيلاً إلى قهره وإيذائه، والكيد له، والنيل منه، إلا اصطنعوه. والنبي ﷺ، صابرٌ، محتسب بإيمان.

- ٤ -

تِلكُمْ كانتْ سيرةُ دعوته - ﷺ - مع قومه ومن حولهم . . . مدة نيّفت على عقد من الزمن، فلما أيقن منهم ذلك الصدَّ والجحود . . . راح يَتَلَمَّسُ لدعوته - عند غيرهم - سبيلاً، علّه يجد أفئدة ألين، وبصائر أهدى، فغدا يعرض نفسه على القبائل والوفود في المواسم وقومه يعترضونه ويُسَفِّهُونه ويحولون بين القبائل وبين الإسلام . . . والنبي ﷺ لا يفتر، ولا يني، ولا ييئس

من دعوته فمن القبائل من كان يرده برفق ولين، ومنهم من يقابله بصلف وعنجهية... حتى شاء الله لهذا الحي من الأنصار - من الخير والإكرام، وسعادة الدارين... فكان أن لقيَ النبي ﷺ وفد الأنصار، وعرض عليهم الإسلام، فأسلموا، فتمكن الإسلام بإسلامهم... رضي الله عنهم.

- ٥ -

كان انتشار الدعوة - قبل إسلام الأنصار، والهجرة إليهم، في المدينة المنورة - وئيداً، «قليلاً، قليلاً، ببطء الهموم في سيرها، وصبر الحُرِّ في تجلده، وكأن التَاريخَ واقف، لا يتزحزح، ضيق لا يتسع، جامد لا ينمو... لقد كان، ﷺ، في مكة يعرض الإسلام على العرب، كما يعرض الذهب على المتوحشين! يرَونَه بريقاً، وشعاعاً ثم لا قيمة له، وما بهم حاجة إليه، وهو حاجة - بني آدم - إلا المتوحشين، وكانوا في المحادّة، والمخالفة الحمقاء، والبلوغ في دعوته، مبلغ الأوهام والأساطير...

كانت مكة هذه صخراً جغرافياً، يتحطَّم ولا يلين،... وكأن النبي ﷺ أخو الشمس، يطلع كلاهما وحده حتى إذا كان إسلام الأنصار وكانت الهجرة إليهم من بعدُ... فانتقل الرسول، إلى المدينة، بدأتِ الدنيا تتقلقل، كأنما مرَّ بقدمه على مركزها، فحرّكها، وكانت خطوته في هجرته، تخط في الأرض ومعانيها تخطُّ في التاريخ...»[١].

فإسلام الأنصار، أصلُ الهجرة، والهجرة نافذة الإسلام على العالم.

---

(١) مصطفى صادق الرافعي رحمه الله، وحي القلم ٢/١٩، بتصرف يسير ولعله أروع ما كُتب في الهجرة.

الفصل الأول

شخصية سعد بن الربيع

ـ المبحث الأول: بيئتـه.

ـ المبحث الثاني: قومه.

ـ المبحث الثالث: نسبه وأسرته.



أخبار سعد بن الربيع رضي الله عنه ـ على قلتها ـ تعلن؛ صورة الصحابي المؤمن الذي امتزج حب الإسلام، وعمق الإيمان في دمه وخالط شغاف قلبه...، وما تضره قلة شيوع ذكره بين الناس، ما دام قد اتخذه الله شهيداً، واصطفاه لأرغد عيش، وأهنأ مقام، بعد أنْ نصح لله ولرسوله، حياً وميتاً...

هي سنوات قليلة، قضّاها مع رسول الله ﷺ... لكنَّهُ استطاع أنْ يجوز بها إلى الفردوس الأعلى...

تجلّى في سعد بن الربيع، رضي الله عنه، كامل الصفات الحميدة من متانة الإيمان، وعمق التضحية، والإيثار، والنصرة، والمحبة والنصح لله، ولرسوله، وللمؤمنين...، ولا جرم فهو واحد من الذين قال فيهم ربُّنا عز وجلّ: ﴿والذين تَبوَّءُوا الدارَ، والإيمانَ مِنْ قَبْلِهِمْ، يُحِبُّون من هَاجَر إِلَيْهِمْ، ولا يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حَرَجاً مما أُوتُوا، ويُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ، ولو كَانَ بِهِمْ خصاصة﴾[1] وهو من الذين أحبّهم رسول الله، فأحبّوه.

---

(١) سورة الحشر آية: ٩.

وهو مَنْ قد عاش سيّداً، حميداً، وقضى شهيداً سعيداً وهو الذي بَذَل مالَه، ونفسَه، لله ولرسوله وللإسلام:

فـما العـزُّ لـلإسـلامِ إلا بـظـلِّـهم
وما الـمـجـدُ إلا مـا بَنَـوْه فـشـيّدوا

رضي الله عنه.

المبحث الأوّل

بيئة المدينة المنوّرة (يثرب)(١) قبل الإسلام

- ١ -

تقع المدينة المنورة، عند تقاطع دائرة عرض: (٢٨′ ,٢٤°) شمالاً مع خط طول: (٣٦′ ,٣٩°) شرقاً.

ولقد دعم الموقعَ المركزيَ للمدينة المنورة، تاريخُها العريق البعيد الجذور في التاريخ، والذي توسط شبكة الطرق القديمة للتجارة منذ قبل الإسلام، ثم للحج من بعد.

---

(١) ورد النهيُ - عن النبي ﷺ - عن تسمية المدينة بـ (يثرب) وقد أُثر عنه - ﷺ - قوله: «من سمّى المدينة يثرب، فليستغفر الله». رواه الإمام أحمد، وأبو يعلى، ورجاله ثقات. وفي رواية فليستغفر الله ثلاثاً... وما وقع في القرآن الكريم، من تسميتها به، فإنما هو حكاية عن المنافقين...، ووجه الكراهة في ذلك، إما لأنه مأخوذ من الثَّرَب، وهو الفساد، أو لكراهة التثريب، وهو المؤاخذة بالذنب...». وفاء الوفا ١/ ١٠، ومن فضائل المدينة د. خليل إبراهيم ملا خاطر / ٢٠.

وإذا كانت هذه التسمية البغيضة، قد وردت فيما يلي من الصفحات، فذلك على اعتبار أني أتكلم على تاريخها (المدينة) قبل الإسلام. واللهم غفرانك.

ومناخ المدينة المنورة له طابع المناخات القارّية الداخلية فدرجة حرارتها تزيد على (٣٠°) ثلاثين درجة مئوية في المتوسط السنوي ولا يقل عن (٢٠°) عشرين درجة مئوية، فحين ترتفع، في شهور الصيف، تجاوز (٤٥°) الخمس والأربعين درجة مئوية، وحين تنخفض في الشتاء، تصل إلى ما دون عشر درجات[١]...

وأمطارها على الأغلب، شتوية، وقليلة[٢]. ورياحها شمالية شرقية، وغالباً ما تكون حارة، جافة (سموم) في فصل الصيف... وأحياناً تثور الرياح بشدة عنيفة...

وبعض أرضها سَبِخَةٌ[٣] وتشتهر بوجود الأراضي الزراعية وهي محاطة بصخور نارية، بركانية، شكلّت عناصر حماية طبيعية؛ محاطة بجبل (أُحُد) من الشمال و (عَيْر) في الجنوب وبالحرتين؛ الشرقية (واقم)، والغربية (الوَبَرَة).

وتكتنفها أوديةٌ، كثيرةٌ، أهمها: وادي (قناة) ووادي (بطحان)، ووادي (العقيق)، ووادي (رانوناء)...

---

(١) مجلة طيبة.

(٢) وفي ذلك من الحكمة العظيمة فمع قلة الأمطار، فهي أكثر البلدان توفراً للفواكه والثمار، والأطعمة، والأغذية، وأظهرُها بركة.

(٣) «قال الزهري، عن عروة، عن عائشة (رضي الله عنها). قالت: قال رسول الله ﷺ ـ وهو يومئذ بمكة ـ للمسلمين: «قد أُريتُ دارَ هجرتكم، أُرِيتُ سبخة، ذات نخل، بين لابتين».

سَبِخَة: أرض ذات ملح. ولم تحرث. اللابة: الحرة. البداية والنهاية ٣/١٦٦. وأرض حرة: ذات أحجار صخرية سوداء، مدببة، يصعب السير عليها. وهذه الصخور البركانية السوداء تكون كبيرة، وتكون صغيرة.

سكانها، وتاريخهم:

لمّا استوت سفينة نوح، عليه السلام، على الجودي، ونزل منها المؤمنون... فاستقروا، ثم تكاثروا، فتفرقوا في البلاد... فكان أوّل من سكن هذه البقعةَ (المدينةَ): يثربُ بنُ قانية، ابن مهلائيل، بن أرم، بن عبيل، بن عوص، بن آرم، بن سام، ابن نوح عليه السلام، وبه سميت (يثرب) - ثم جحفهم السيل، إلى الجحفة[1] وقال ياقوت: «أوّل من زرع (يثرب). واتخذ بها النخل، وعمّر بها الدور والآطام، والضياع، هم: العماليق (بنو عملاق)، بن أرفخشد، بن سام، بن نوح، عليه السلام»...[2].

ثم نزلها بنو إسرائيل، هاربين من (بختنصر)، في شمال الجزيرة العربية[3]. وكانوا على علم، بظهور نبي آخر الزمن، وهجرته إلى قرية ذات نخل، بين حرتين، فتفرقوا بين تيماء، وخيبر والمدينة، ليكون لهم شرف اتباعه، عند بعثته[4].

وأوصى الآباءُ الأبناءَ، باتباعه لدى ظهوره، غير أَنَّ مَنْ أدركه،

---

(١) انظر: وفاء الوفا ١/١٥٦، والمدينة المنورة في التاريخ، لعبد السلام هاشم حافظ ٢٧ وما بعدها، وأخبار مدينة الرسول، لابن النجار ١١ - ١٢ وما بعدهما، تاريخ معالم المدينة المنورة، للخياري ص ١٦ وما بعدها.

(٢) وفاء الوفا ١/١٥٧.

(٣) وفاء الوفا ١/١٦٠.

(٤) ابن النجار، أخبار مدينة الرسول ١٣. وأجمع مرجع في هذا الباب: وفاء الوفا ج ١ ص ١٥٦ وما بعدها.

كفروا به ـ غيظاً من الأنصار وحسداً لهم، لأنهم كانوا قد سبقوا اليهودَ إلى النبي، وتشرّفوا باتصالهم به»[1].

﴿ولَمّا جاءَهم كتابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصدِقٌ لِمَا مَعَهُمْ، وكانوا من قبلُ يستفتحون عَلَى الذين كَفَرُوا فلمَّا جاءَهُم ما عَرَفوا، كَفَروا به فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافِرين﴾[2]. وقد كان اليهود ـ بالمدينة ـ نحواً من عشرين قبيلة، لمّا نزل الأوس والخزرج جنبات المدينة»[3]

نزول الأوس والخزرج (المدينة) وهم أصل الأنصار:

نقل ابن زبالة، وغيره؛ أن اليهودَ لم تزل عزيزة غالبة في (يثربَ) حتى كان خراب سد مأرب، وتدفق سيل العَرِم[4]. كما في العبِرة التي أوردها الله تعالى في قصة، أهل سبأ[5].

وكان كبيرَ القوم في اليمن ـ آنذاك ـ (عمروُ بن مُزَيقِياء) ابن ماء السماء ـ وهو جدُّ الأنصار ـ ويرجع نسبه إلى قحطان ـ كان قد تكَهَّن ـ أو تُكُهِّن له ـ بخراب السد، فباعَ أرضه ومتاعه، واحتمل بأولاده، ومن تبعه من قومه... ثم وصف لهم البلادَ في الشمال، ليقطن كل منهم بما يوافق طبعه منها... فنزل بعضهم عُمان، ونزل بعضهم الشام... «ومن كان يحبُّ الراسخاتِ في

---

(١) عبد السلام هاشم حافظ، المدينة المنورة في التاريخ ٢٨.
(٢) سورة البقرة آية: ٨٩.
(٣) المدينة المنورة في التاريخ ٢٩.
(٤) أخبار مدينة الرسول ١٥ وما بعدها، وفاء الوفا ١/ ١٦٦ وما بعدها.
(٥) سورة سبأ آية: ١٥ ـ ١٦.

الوحل، المطعماتِ في المَحْل، المدركاتِ للذحل. . . فليلحق بالحرة ذات النخل»[1]، فسكنها الأوسُ والخزرجُ، وذلك لما قدرَّه الله لهم من السعادة والخير والفلاح. . . فيما بعد. . .

ولَمَّا نزل الأوس والخزرج، المدينةَ (يثرب)، كان اليهود الذين استوطنوها قبلهم، قد حازوا الآطام[2] والأموال، والنخيل، وكانت العُدة والعدد لديهم، والغلبة لهم، والحصون بأيديهم - فعقدوا معهم حلف جوار، وعدم اعتداء مِنْ كلا الفريقين، فلما تكاثر الأوس والخزرج، خشيَ اليهودُ منهم، فنقضوا عهدهم، وأساؤوا جوارهم. . . فأمْكَنَ الله منهم على يد (مالك ابن العجلان الخزرجي - سيد الأوس والخزرج - فقَتَلَ طاغيتَهم(الفيطونَ) فتمكّن الأوسُ والخزرجُ منهم، وعَلَوا عليهم. . . فاتخذوا الأموال والديارَ والنخيل[3]، وبنَوا الحصون والآطام، التي اشتهرت بها المدينة (يثرب). . .[4].

---

(١) وفاء الوفا ١ / ١٧٠ - ١٧١.

(٢) الآطام: الحصون. ومفردها أُطم. (على وزن قُفل - أقفال).

(٣) ابن النجار، أخبار مدينة الرسول ١٧ - ١٨.

(٤) شيّد بنو عبد الأشهل، أطماً يقال له: واقم، وبه سميت الحرة يقول شاعرهم:

نحن بنينا (واقماً) بالحرة ... بلازب الطين وبالأصرة

وبنوا غيره كثيراً، مثل: أطم الأجرد، والأشنق، وجذمان، وخيط، والمنيع، والأغلب، والرعل، والسعدان، والسنح، والشنيف، والضحيان، والعذق، وفارع، والمستظل. . . . ومن هنا عرفت المدينة (يثرب) بـ ذات الآطام. وفي ذلك يقول الشاعر:

قالت أُنيسة دعْ بلادك والتمسْ ... داراً بطيبةَ ربَّةِ الآطام

تكتب عيالك في العطاء، وتفترض ... وكذاك يفعل حازم الأقوام =

فلمّا رأى اليهود، أنْ لا قِبَل لهم ـ بعدها ـ بمواجهة الأوس والخزرج صراحة، عمدوا إلى الخَتْل وضروب المكر؛ فانشعبوا فريقين، طائفة تشايع الأوس، وطائفة توالي الخزرج... وما زالوا بهم حتى صَدَعُوا صفهم، وفرّقوا كلمتهم، وبدَّدُوا شملهم، وأججوا بينهم الفتن... وأوقدوا الحروب، وأثاروا الحفائظ، وما زالوا بهم وقيعة، ودسائس حتى اقتتل الحيان بنو العمومة، فكادوا يفنون بعضهم بإنشاب حروب، لمصلحة اليهود، ليضعف كلا الفريقين (الأوس والخزرج) فيسهل على اليهود السيطرة عليهما، واستغلال ثرواتهما والعيش بينهما بأمن ورغد... فكانت بينهم الأيام سجالاً فَنِيَ من جراها الكثير من سراة القوم، وأشراف الطرفين[1]... ولسان حالهم ينشد مع دريد بن الصمة الجشمي:

يُغار علينا واترين فيشتفى
بنا إن أُصبنا، أو نُغير على وِتر

بذاك قسمنا الدهر شطرين بيننا
فما ينقضي إلا ونحن على شطر[2]

= فهذا شاعر نجدي، من العصر الأموي، تحثه زوجته على هجر دياره والهجرة إلى طيبة، المدينة المنورة. والشاعر: (جبيهاء الأشجعي) واسمه: يزيد بن عبيد.

وانظر تفصيل هذا كله في شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج، د. محمد العيد الخطراوي ٤٩ وما بعدها...

(١) يراجع (فيما ثار بينهم من حروب) د. محمد العيد الخطراوي، شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج ٩٨ وما بعدها.

(٢) محمد خير البقاعي، تحقيق ديوان دريد بن الصمة ٦٤ ـ ٦٥.

بدءاً بيوم سُمير... إلى يوم بُعاث ـ قبل الهجرة المباركة بخمس سنوات حين تدارك الله الطرفين بالإسلام. فألّف بين قلوبهم، وأزال الشحناء والبغضاء من نفوسهم، ونزع الغل من صدورهم...[1].

وأما بيئة سعد؛ (يثرب) بعد الإسلام، فهي المدينة المنورة سيدة البقاع، ذات الفضائل الجمّة... فهي الدار والإيمان، وهي أرض الله وأي شرف أعظم من أن تُضاف إلى اسم الجلالة... ﴿أَلَمْ تَكُنْ أرض اللهِ واسعةً، فتهاجِروا فيها...﴾[2] وهي بيت رسول الله ﷺ ﴿كما أَخْرَجَكَ ربُّكَ مِنْ

---

(١) روى البخاري ـ رحمه الله ـ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «كان يوم بُعاث يوماً قدّمه الله عز وجل لرسوله ﷺ، في دخولهم الإسلام فقدِم رسولُ الله ﷺ، المدينة، وقد افترق ماؤهم، وقتلت سرواتهم، وجرحوا، فقدّمه الله لرسوله ﷺ...، انظر فتح الباري ٢٦٤/٧، والتجريد الصريح ٢/ ٦٠.

وقد شقَّ على اليهود، رؤية الأوس والخزرج ـ بعد الإسلام ـ إخواناً متحابين، متآلفين...، وغاظهم زوال الإحن بينهم والبغضاء... فحاولوا... صدعهم من جديد، وذلك بمحاولة خبيثة لئيمة ماكرة... بتذكيرهم أيام الجاهلية ووقائعهم فيها، ونبش أحقاد الماضي. ـ وقد كادوا يفلحون ـ. ولكن هيهات، ورسول الله بين ظهرانيهم. ثم هيهات وقد تمكّن الإيمان من قلوبهم... ثم هيهات وقد عرفوا سياسة اليهود ومكرهم.

انظر ابن هشام، السيرة النبوية ٥٨٨/٢ ـ ٥٨٩ ـ ٥٩٠، ووفاء الوفا ٢٦٨/١ ـ ٢٦٩. وانظر أسباب النزول للنيسابوري ص ٨٤ ـ ٨٥ في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً...﴾.

(٢) سورة النساء آية: ٩٧.

بَيْتِكَ بالحق. . .﴾[1] فهي المنورة، والمحبوبة، والمباركة، والميمونة، والطيبة، والآمنة، والمعصومة، والمأمونة. . والبَرة، والخيرة، ومدخل الصدق وحرم رسول الله ـ ﷺ ـ والمحرّمة، والمكرمة، والمشرفة. . . المبروكة. . . وفضائلها أكثر من أن تُعَدَّ. . . ومناقبها أعظم من أن تحصى. . .[2]. حرسها الله.

---

(١) سورة الأنفال آية: ٥.

(٢) لم أشأ الإطالة في ذكر فضائل المدينة ومناقبها. . . لأن ذلك معروف وقد كنتُ كتبتُ كلاماً كثيراً في ذلك ثم طويته خشية الإطالة والتكرار. . . وكل ذلك مبسوط في كتب كثيرة نافعة ومتداولة. . . وانظر: وفاء الوفا الباب الثاني ٢٨ ـ ١٣٩، وابن النجار، أخبار مدينة الرسول ٢٨ ـ ٣٥، و د. خليل إبراهيم ملا خاطر، مختصر من فضائل المدينة. . . والمغانم المستطابة. . .

وكثيرة هي الكتب التي تحدثت عن المدينة المنورة وفضائلها. . . ورحم الله كاتبيها وجزاهم خيراً.

المبحث الثاني

قومه الأنصار

تعريفهم، نسبهم، مكانتهم في الإسلام، فضائلهم رضي الله عنهم

أروني سعوداً كالسعود التي سمت
- (بمكة) - من أولاد عمرو بن عامر

أقاموا عمود الدين حتى تمكنت
قواعده بالمرهفات البواتر

وكم عقدوا لله ثم وفوا به
بما ضاق عنه كل باد وحاضر[1]

«... أراد بالسعود سبعة: وهم أربعة من الأوس، وثلاثة من الخزرج فمن الخزرج: سعد بن عبادة، وسعد بن الربيع، وسعد ابن عثمان، ومن الأوس: سعد بن معاذ، وسعد بن خيثمة، وسعد ابن عبيد، وسعد بن زيد»[2].

---

(١) ديوان حسان بن ثابت: ٢٦٢.

(٢) الإصابة: ٢/٢٥.

١ ـ الأَنْصَارُ:

اسم إسلامي، سمّى به النبيُّ ـ ﷺ ـ قبيلتي الأوس والخزرج.

والأنصار جمع ناصر، كأصحاب وصاحب. أو جمع نصير كأشراف وشريف. واللام فيه (الأنصار) للعهد؛ أي أنصار رسول الله ﷺ. والمراد: الأوس والخزرج وكانوا ـ قبل ذلك ـ يُعرفون ببني قَيْلَة (بقاف مفتوحة، وياء تحتانية ساكنة). وهي الأم. التي تجمع القبيلتين.

ثم صار هذا الاسم الكريم (الأنصَارُ) علماً عليهم، وعلى أولادهم، وحلفائهم، ومواليهم...

وخُصّوا بهذه المنقبة، العظمى، لما فازوا به دون غيرهم. من القبائل، من إيواء النبي ﷺ، وقومه، والقيام بأمرهم، ومواساتهم بأنفسهم، وأموالهم، وإيثارهم في كثير من الأمور على أنفسهم...»[١] ونصرتهم....

ولعل أروع نموذج على ذلك، ما قدّمه الصحابي الجليل سيّدنا سعد بن الربيع الأنصَاري، الخزرجي، فحاز بذلك شرفَ الانتساب لهذا الاسم الكريم، كما سيمر معنا فيما بعد.

٢ ـ نَسَبُ الأَنصَارِ:

فإنْ تكُ عنّا معشر الأُسْد[٢] سائلاً
فنحن بنو الغوثِ بنِ زيدِ بنِ مالكِ

(١) فتح الباري ١/٨١، وانظر الروض الأنف ٢/١٨٣.
(٢) ويُروى معشر الأزد.

لـزيدِ بنِ كَـهْـلانَ الـذي نالَ عـزُّه

ـ قديـماً ـ دار ريَّ الـنجـومِ الشـوابـكِ

إذا الـقومُ عـدّوا مجـدَهـم وفِـعَـالَهـم

وأيـامَـهـم، عنـد التقـاءِ المنـاسـكِ

وجـدتَ لـنـا فـضـلاً يُـقِـرُّ لنـا بـه

ـ إذا ما فخِرنا ـ كلُّ باقٍ وهالكِ(١)

الأنصَارُ؛ أولاد الأوس والخزرج، والأوس والخزرج أَخَوَان وهما ابنا حارثة بن ثعلبة، بن عمرو (مزيقياء) بن عامر (ماء السماء) ابن حارثة (الغطريف) بن امرىء القيس، بن ثعلبة ابن مازن بن الأزد بن الغوث، بن النبت، بن مالك بن زيد، ابن كهلان، بن سبأ بن يشجب، بن يعرب، بن قحطان. . .(٢).

«وما ذُكر من أن قحطان بن عابر، بن شالخ، هو ما عليه جمهور علماء النسب، وهو من أصل عرب اليمن وإليه انتسب القحطانية، قال في العبر: واسمه في التوراة «يقطن فعرف بقحطان، وقال بعضهم: إنه قحطان بن الهميسع بن سلامان ابن نبت، من ولد إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام. . .»(٣).

وقد اختلف النسَّابون في قحطان، فالأكثرون قالوا: إنه عابر

---

(١) حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، الديوان ٣٤٨ ـ ٣٤٩، تحقيق البرقوقي.

(٢) سبائك الذهب ١٦ وما بعدها.

(٣) وفاء الوفا ١/١٧٣.

ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ـ عليه السلام ـ وقيل هو مِنْ هود نفسِه، وذهب الزبير بن بكار إلى أن قحطان من ذرية إسماعيل عليه السلام... وهو ظاهر قول أبي هريرة رضي الله عنه في الصحيحين في قصة هاجر «فتلك أُمُّكُمْ يا بني ماء السماء». يخاطب «الأنصار»[1] قال الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله: «وهو الذي يترجح في نقدي»[2]. وقد ذكر ابن عبد البر من طريق القعقاع بن أبي حدرد، أنَّ النبي ﷺ: «مرَّ بناس من أسلم وخزاعة، وهم يتناضلون فقال: «ارُموا بني إسماعيل»، وأسلم وخزاعة من قبائل اليمن... وجماع نسبتها إلى قحطان...[3] ومما يؤيد ذلك، قول المنذر بن عمرو، جد حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه:

وَرِثْنا مِنْ البَهْلُولِ عمروِ بنِ عامرٍ
وحارثةَ الغطريفِ مجداً مؤثلا
مآثر مِن آل ابن نَبتِ بن مالكٍ
ونبت بن إسماعيل، ما إن تحولا[4]

ويُكتفى بذكر النسب... إلى ما دون قحطان... (فقد روى ابن عباس عن النبي ﷺ: «إذا وصل النسب إلى قحطان من هنا كذب النسّابون»)[5].

---

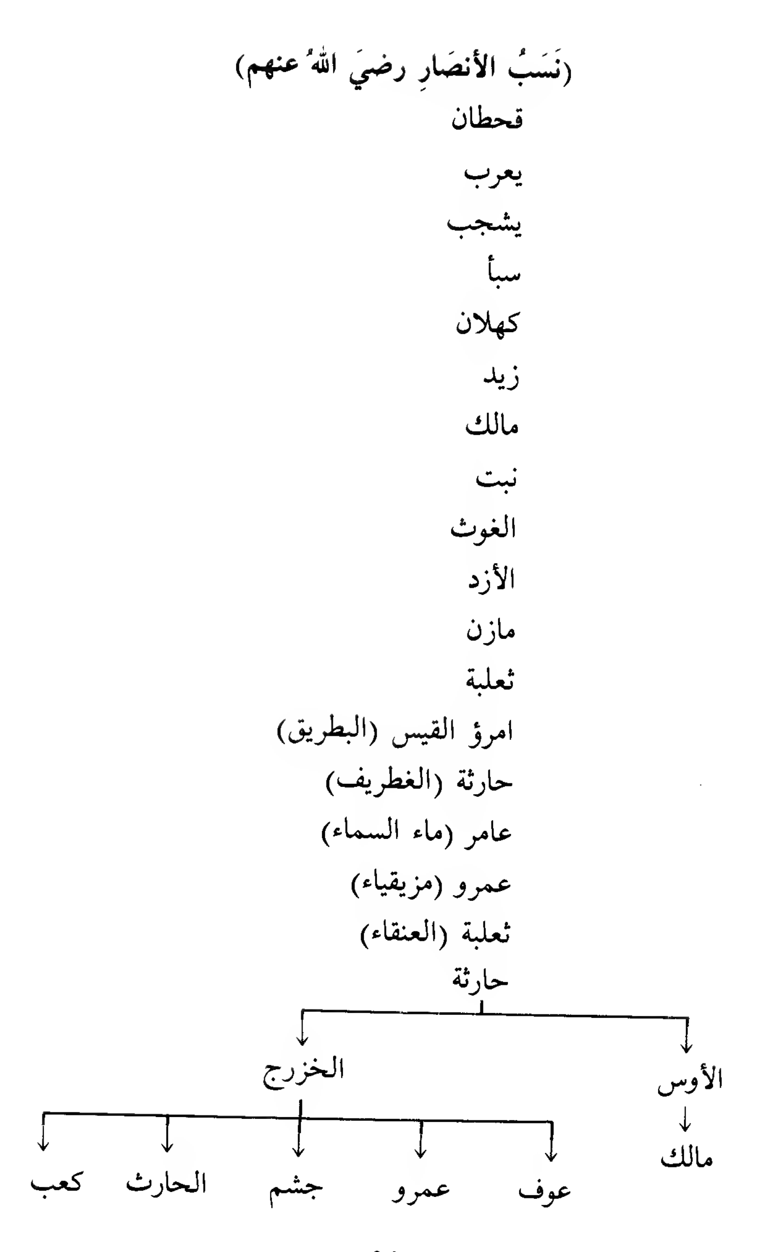
(١) وفاء الوفا ١/١٧٣. (٢) فتح الباري

(٣) وفاء الوفا ١/١٧٤.

(٤) المرجع السابق وانظر ديوان حسان بن ثابت ٤٠١.

(٥) انظر فيه شعر الحرب في الجاهلية عند الأوس والخزرج محمد العيد الخطراوي فصل نسب الأنصار ص ٩ وما بعدها.

(نَسَبُ الأنصَارِ رضيَ اللهُ عنهم)



وأمهُّم ـ : قَيْلَةُ بنت عمرو بن جفنة، وقال ابن حزم هي : بنت الأرقم، بن عمرو، بن جفنة، بن عمر (مزيقياء) ويقال : بنت كاهل، بن عذرة، من قضاعة، من حمير عند الأكثرين(١).

واشتهرتِ الأَنْصَار: ببني قَيْلَة، وإياهم يعني القائل(٢):

بهــاليــلُ مِن أولادِ قَيْلَةَ لم يَجِــدْ
عليهم خليطٌ، من مخـالـطةِ عَتْبَــا
مطاعيمُ فـي المقرى، مطاعينُ في الوغى
يَـرَوْنَ عليهم فعلَ آبـائـهم نَحْبَا(٣)

٣ ـ مكانة قومه (الأنصار) وفضائلهم:

﴿. . . والذين تَبَوَّءوا الدارَ والإيمان مِنْ قَبْلِهِمْ يُحبّون مَنْ هَاجَر إلَيْهِمْ ولا يَجِدُونَ في صُدُورِهِمْ حاجةً مما أُوتوا، ويُؤْثِرُون على أنْفُسِهِمْ، ولو كانَ بِهِمْ خَصَاصةٌ ومَنْ يُوقَ شُحَ نفسِهِ فأُولئك هُمُ المُفْلِحُونَ﴾(٤).

تبوأ الأنصار مكانة رفيعة، في الإسلام، تشهـد لهم بها النصوص الكريمة ـ الكثيرة ـ من القرآن والسنة.

---

(١) وفاء الوفا ١/١٧٦ ـ ١٧٧.
(٢) حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه.
(٣) النَحْب: النُذْرُ. انظر الزمخشري، أساس البلاغة مادة: نحب ٤٤٩.
وفيه:
مساميحُ أبطـالٌ يُرَجّـون لـلندى يَـرَوْنَ عـلـيـهم فعـلَ آبائهم نحبـا
(٤) سورة الحشر آية: ٩.

فقد مدحهم الله تعالى، وأثنى عليهم في مواضع كثيرة في القرآن مخصوصين بالذكر تارة، ومقرونين بإخوانهم المهاجرين مرات. . .، وذلك لِمَا تحلّى به قوم سعد بن الربيع، رضي الله عنهم من مزايا حميدة في جاهليتهم. . . فلمّا جاء الإسلام، صقل تلك الأخلاق وهذَّبها ووجهها لله سبحانه. . . فلذلك خلطهم النبي - ﷺ - بنفسه. . . وفضلهم على سواهم.

ولقد كان قوم سعد بن الربيع - رضي الله عنه - في الجاهلية «أصحابَ نخوة وإباء وفروسية وقوة شكيمة، أَلِفُوا الحرية ولم يخضعوا لأحدٍ، ولم يدفعوا لقبيلة، أو حكومة إتاوة، أو جباية. . . كما قال سعد بن معاذ لرسول الله ﷺ: «قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله، ولا نعرفه، وهم لا يَطْمَعُون أن يأكلوا منها[1] إلا قِرىً أو بيعاً»[2].

«فالأوس والخزرج (الأنصار)، من أعزِّ الناس نفساً، وأشرفهم هِمماً. . .»[3].

فلما جاء الإسلام، وهو دين العزة، والرفعة، والسؤدد، بلغوا شأواً لا يدرك، لما فيهم من الرحمة والقوة معاً، وأسباب السيادة. . . فقال لهم ﷺ: «أما أنتم معشر الأنصار، فأنا أخوكم». فقالوا: «الله أكبر، ذهبنا بها وربِّ الكعبة»[4].

---

(١) الضمير يعود إلى المدينة. وقِرىً: ضيافة.

(٢) الندوي، السيرة النبوية ١٣٣.

(٣) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد لتقف على نادرة طريفة في شأنهم (رضي الله عنهم) ٢/ ٥٤.

(٤) فتح الباري ٧/ ١٣٧ - ١٤١.

وقد نَزَلَ عليهم إخوانهم المهاجرون، فواسوهم بأنفسهم، وأموالهم وآثروهم على أنفسهم، في كثير من المواطن.

وقد أبدوا ضروباً من الشجاعة، والبسالة، شهد لهم بها رسول الله ﷺ، فقال مثنياً عليهم: «إنكم ـ ما علمتُ ـ تكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع»[1]. ووصفهم بأنهم «أعِفَةٌ، صُبُرٌ»[1].

وقد ظهرت بطولاتهم ـ رضي الله عنهم ـ في كل معركة، مع رسول الله عليه صلوات الله وسلامه، من بدر إلى حنين... وإلى معارك الفتوحات الإسلامية بعد ذلك... وقد أخرج البخاري ـ رحمه الله ـ عن أنس رضي الله عنه قال: لمّا كان يوم حنين، أقبلت هوازن، وغطفان، وغيرهم بنعمهم وذراريهم، ومع رسول الله ﷺ، عشرة آلاف والطلقاء، فأدبروا عنه، حتى بقي وحده، فنادى ـ يومئذٍ ـ نداءَين لم يخلط بينهما... التفت عن يمينه فقال: «يا معشر الأنصَار». قالوا: لَبَّيْكَ يا رسول الله، أبشر، ـ نحن معك ـ ثم التفت عن يساره فقال: «يا معشر الأنصَار». فقالوا: لبيك يا رسولَ الله أبشر نحن معك[2] بل لقد نال قوم سعد بن الربيع ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ الشرف الأوفر في المعارك مع رسول الله ﷺ؛ فقد ساق ابن سعد في الطبقات ـ بسنده ـ عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال:

---

(١) حياة الصحابة، الكاندهلوي ١/٤٠١، (عن كنز العمال ٧/١٣٦).

(٢) حياة الصحابة ١/٣٩٧.

لمّا كان يوم حنين، أَمَرَني رسول الله ﷺ أَنْ أُنادي أصحابَ السَمُرَة ـ يعني الأنصار ـ . . . فأقبلوا كأنهم الإبل إذا حنَّتْ إلى أولادها . . . [يقولون](١) يا لبيك، يا لبيك . . . ثم قُصرت الدعوة في ـ [قوم سعد بن الربيع خاصة](١) ـ. بني الحارث ابن الخزرج، فنظر النبي ـ وهو على بغلته ـ كالمتطاول إلى قتالهم، فقال: «هذا حين حميَ الوطيس».

وأخرج أبو نعيم في الدلائل . . . قال عليٌّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يوماً وهو يذكر الأَنصار، وفضلَهم . . . «إنَّه ليس بمؤمن من لم يحب الأنصَار . . . هم والله ـ رَبَّوا الإسلام . . . ـ كما يُربى الفلو في غنائهم بأسيافهم، وطول ألسنتهم، وسخاء أنفسهم . . .»(٢).

وعن أم سعد ـ جميلة بنت سعد بن الربيع الأنصَاري رضي الله عنها وعن أبيها وقومها ـ ، قالت: «أقام رسول الله ﷺ، بمكة، ما أقام يدعو القبائل إلى الله عز وجل، فيؤذَى، ويُشْتَمُ، حتى أَراد الله ـ عز وجل ـ بهذا الحي من الأنصَار من الكرامة . . . [قال الراوي](١) قلت لأمٍّ سعد: وكم كان رسول الله ﷺ، أقام بمكة؟. قالت: أما سمعت قول صرمة قيس بن أبي أنس؟ قلت: لا أدري ما قال: فأنشدتني قوله:

---

(١) [ ] لم تكن في أصل النص.

(٢) الكاندهلوي، حياة الصحابة ١/١٠٣ ـ ١٠٤، والسيرة النبوية ٤/١٢٩١، ولعمر بن الخطاب رضي الله عنه حديث مشابه وفي [جمع الفوائد] من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قوله: «لئن بقيت إلى رأس الحول، لا يبقى لي عامل إلا أنصاري . . .» رضي الله عنهم أجمعين.

ثَوَى في قريشٍ بضعَ عشرةَ حَجـةً
يُـذَكِّرُ لـو يلقي صديقـاً مـواتيـا»[1]
ويَعْـرِضُ في أهـلِ المواسم نفسَـه
فلم يَـرَ من يُؤوي، ولم يَـرَ داعيـا
فلمّـا أتـانـا واطمـأنَّتْ بـه النـوى
وأصبـح مسـروراً بـطيبـة راضيـا
وأصبح لا يخشى من الناس واحداً
قـريباً ولا يخشى من النـاس نائيـا
بَـذَلْنا لـه الأمـوالَ من جـلٍّ مـالنـا
وأنفسنَـا عنـد الـوغى والتـآسيـا
نُعادِي الذي عادى من الناسِ كلِّهمْ
جميعاً ولو كان الحبيبَ المواسيا[2]

ولقد صدق الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ في مقالته الرائعة. . .
«ما وجدنا لنا، ولهذا الحي من الأنصار مثلاً، إلا ما قال طُفيل الغَنَوي:

أبَـوْا أن يَمَلّونـا، ولـو أن أُمَّـنـا
تُـلاقي الـذي يَلْقَـوْن منـا لملَّتِ
همُ خلطونـا بـالنفـوس، وأولجـوا
إلـى حجـراتِ أدفـأتْ وأظـلتِ[3]

---

(١) الكاندهلوي، حياة الصحابة ١٠٤/١.
(٢) السيرة النبوية، ابن هشام ٥٤١/٢.
(٣) وفاء الوفا ١٥/١. وقبلهما بيت تمثل بها الصديق ـ جميعاً ـ رضي الله عنه: =

ولهذا قال المهاجرون للنبي ﷺ: «... لقد خشينا، أنْ يذهبوا (الأنصار) بالأجر كلِّه... فقال النبي ﷺ: «لا إنْ أثْنَيتُمْ عليهم ودعوتم الله لهم...»[1].

وهذا ما يفسر لنا كثرة الأحاديث النبوية الصحيحة في هؤلاء الأخيار الأبرار رضي الله عنهم... وقد أفرد الإمام البخاري - رحمه الله - في صحيحه - باباً خاصاً في مناقب الأنصار وفضائلهم... رضي الله عنهم... من ذلك ما رواه عن أبي هريرة رضي الله عنه - عن النبي ﷺ - قال: «لولا الهجرة لكنت من الأنصار»[2]. وعن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنصار، لا يحبُّهم إلا مؤمن، ولا يُبْغِضُهم إلا كافرٌ، فمن أحبُّهم أحبَّه اللهُ، ومن أبغضهم أبغضه الله»[2].

ولعل من المواقف الخالدة تلك الخطبة النبوية العظيمة المؤثرة التي خطبها المصطفى ﷺ عَقِبَ حُنيْن «... ألا ترضون يا معشر الأنصَار، أن يذهب الناس بالشَّاءِ والبعير...، وترجعون برسول الله، إلى رحالكم فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصَار... ولو سلك الناس شعباً، وسلكتِ الأنصار شعباً، لسلكتُ شعب الأنصار، اللهم ارحم

= جزى الله عنا جعفراً حين أشرقت ... بنا نعلُنا للواطئين فزلّت
أبَوا أن يملونا..... حياة الصحابة ١/٤٠٨.

(١) قال الحافظ ابن كثير، رحمه الله، في البداية ٣/٢٢٧، «هذا حديث ثلاثي الإسناد على شرط الصحيحين، ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة من هذا الوجه... وانظر: كنز العمال ٧/١٣٦.

(٢) التجريد الصريح ٢/٦٠.

الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءِ الأنصارِ. . . قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قَسْماً وحظاً»[1].

فقد عرف النبي ﷺ، لقوم سعد ـ رضي الله عنهم ـ مكانتهم. . . فهم أصحاب الرأفة واللين، والعفو والتسامح، والإخلاص والحق، وهم أصحاب الثقافة والحِرَف، وهم الصادقون، المخلصون، الأوفياء، الأمناء، المتقون، البواسل في الحروب، العُبّاد الزهّاد في السلم. . . فلذلك كان «آية الإيمان حبّ الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[2]. ولذلك كان آخر ما أوصى به النبي ﷺ: إكرام الأنصار والإحسان إليهم والتجاوز عنهم[2]. . .

---

(١) السيرة النبوية ٤/١٣٥٣.

(٢) التجريد الصريح ٢/٦٠ ـ ٦١.

والأخبار في فضائلهم ومناقبهم، ومزاياهم، أكثر من أن تحصى فرضي الله عنهم وأرضاهم. . . ومن بعض فضائلهم استلهام الآذان فقد استلهمه الصحابي الجليل عبد الله بن ثعلبة. . . أخو الحارث بن الخزرج وهو ابن عم سعد بن الربيع الأنصاري رضي الله عنهم. انظر: البداية والنهاية ٣/٢٣٠ ـ ٢٣٢، والسيرة النبوية ١/٥٣٦.

المبحث الثالث

نسبه وشخصيته وأسرته

ثعلبة [العنقاء]

حارثة

الأوس — الخزرج

الأوس ← مالك

الخزرج ← عوف، عمرو، جشم، الحارث، كعب

الحارث
↓
الخزرج
↓
كعب
↓
ثعلبة
↓
مالك [الأغر]
↓
امرؤ القيس
↓
مالك
↓
(أبو زهير)
↓
عمرو
↓
الربيع
↓
سعدٌ (رضي الله عنه)

الصحابي الجليل، البطل سعد بن الربيع الأنصاري: رضي الله عنه.

نسبه: هو سعد بن الربيع، بن عمرو، بن أبي زهير، بن مالك ابن امرىء القيس بن مالك (الأغر)[1] بن ثعلبة بن كعب ابن الخزرج بن الحارث، بن الخزرج، بن حارثة، بن ثعلبة، ابن عمرو، بن عامر، (ماء السماء) وسُمي بذلك لكرمه فكأنه ينوب عن الغيث، بن حارثة الغطريف وسمي ذلك لشجاعته، ابن امرىء القيس، بن ثعلبة، بن مازن، بن الأزد (الأسد) بن الغوث ابن نبت، بن مالك، بن زيد، بن كهلان بن سبأ بن يشجب، ابن يعرب بن قحطان...

أما أبوه: الربيع بن عمرو. فقد اعتبطه الموت، في الجاهلية، أو اختلجته الرماح، أو اخترمته السيوف، في إحدى المساجلات الضارية - التي أفنت سروات الفريقين، بني العمومة وطحنت أشرافهم على الأرجح - إذ لم يَرِد له ذِكر في التراجم[2]، وإنه لو

---

(1) وقع بعض الاختلاف في [الأغر]. فبينما عدّه ابنُ عبد البر - رحمه الله - جَداً. الاستيعاب ٢/٣٤، وهو ليس كذلك، بل [الأغر] صفة لمالك، كما في معظم التراجم...، نجد أبا نُعيم - رحمه الله - قد أسقط [مالكاً الأغر] من سلسلة النسب، البتة: معرفة الصحابة (مخطوط). وانظر: الإصابة ٢/٢٦، وطبقات ابن سعد ٣/٥٢٢، ومحمد بن حبيب، المحبر ٢٦٩، والسيرة النبوية ٢/٤٦٦، والأنساب، لابن حزم، وابن قدامة، الاستبصار في نَسَب الأنصار ١١٤، وابن كثير، البداية والنهاية ٣/١٥٩، ابن الأثير، أُسد الغابة ٢/٢٧٧.

(2) وقفت في الإصابة على ترجمتين لشخص اسمه (الربيع الأنصاري)... وردت واحدة في القسم الأول من الإصابة رقم الترجمة (٢٥٨٦) =

كان حياً لَمَا وسعه إلا المبادرة إلى الإسلام ـ ولما تربع ابنه سعد ـ رضي الله عنه على زعامة قومه، وتمثيلهم ـ يوم العقبة ـ نقيباً عنهم.

ويُرَجَّحُ أن أباه ـ الربيعَ بن عمرو ـ قد فارق الدنيا شابًّاً، لم يقطف زهرتها. . . فلم يعقب سوى سعد، وثمة أخ له ـ أراد أخذ مال سعد بعد استشهاده ـ. وترك زوجة شابة ـ هُزيلة بنت عتبة ـ . . . فخلف عليها ابن عمه، خارجة بن زيد فولدت له، زيد ابن خارجة، وحبيبة زوجة أبي بكر رضي الله عنهما.

وكما رحل أبوه ـ الربيعُ بن عمرو ـ شابّاً فكذلك استشهد ابنه الصحابي الجليل سعد بن الربيع في ذروة شبابه، فلم يعقب سوى ابنتين الكبرى تدرج، والصغرى حَمْل في بطن أمها[1]. . .

لكنّا لا نعرف ـ بالتحديد ـ كم عُمّر، وإن كنت أُرجِّح أنه استشهد في منتصف عقده الثالث. . . أو دونه قليلاً.

وقد ولد سعد بن الربيع بين أحضان النخيل، وفتح عينيه على مال كثير، وثراء عريض. . . فهو من الموسرين في الأنصار. . .

= ج ١/٥٠٥، والثانية وردت في القسم الرابع ـ ممن ليسوا صحابة ـ وذكروا على سبيل الوهم والغلط ـ في الصحابة ـ برقم (٢٧٤٩) ج ١/٥٢٩.

وفي كلا الترجمتين من الاختلال، والوهم، والرواة المتروكين. . . ما جعلني لا أعبأ بهما، ولا ألتفت لهما. ومع أن ترجمة القسم الأول فيها شيء من الإبهام في نسب الربيع فهو غير والد سعد، فقد صرحت ترجمة القسم الرابع بنسبه ـ كاملاً ـ مع الاختلال في الرواية، فصحّ عندي أن الربيع ـ أبا سعد ـ لم يدرك الإسلام. والله أعلم.

(١) الطبقات الكبرى ٨/٣٥٩ ـ ٣٦٠، والاستيعاب ٢/٣٥.

وقد يَفَعَ وترعرع، بين جنبات بستانين عظيمين، فكانت نشأته مترفة ناعمة. . . ولكنها عادية وطبيعية فلم يكن في حياته - قبل الإسلام - ما يثير الانتباه، أو يلفت الأنظار، إلا ما كان يتمتع به من صحة في البدن وعافية. وسداد في الرأي، ورجاحة في العقل. . . وما اكتسبه من خبرة وثقافة من القراءة والكتابة. . . على ندرتها - آنذاك - وما تمتع به من فتوة وفروسية. . .[1] مما جعله خليقاً أن يسود قومه، وحقيقاً أن يكون، في الطليعة المقبلة على الإسلام.

أمــه:

هُزَيْلة بنت عتبة بن عمرو[2] بن خديج، بن عامر بن جشم ابن الحارث بن الخزرج. الأنصارية. الصحابية رضي الله تعالى عنها. . . وقد كانت من السابقات إلى الإسلام. . . لمّا أضاءت المدينة بنوره كما كانت من المتسابقات إلى مبايعة النبي ﷺ. هي وابنتاها - أختا سعد - مع نسوة من قومها رضي الله عنها.

وكذا، **أخته: مَحَبَّةُ بنت الربيع بن عمرو**. . . وأمها هُزيلة بنت عتبة بن عمرو بن خديج. . . الصحابية الجليلة. . . وهي شقيقة سعد لأمه وأبيه، تزوجها أبو الدرداء (عامر بن زيد. . .) الخزرجي رضي الله عنه، فولدت له بلالاً.

---

(١) ابن حجر، تعجيل المنفعة ١٤٧.

(٢) وقع بعض الاختلاف في نسب هزيلة. . . فقد سقط اسم جدها عمرو - عند ابن سعد - في الطبقات وصحّف عتبة إلى عنبة. الطبقات ٥٢٢/٣، وفي كل موضع ذكرت فيه. وانظر: الإصابة ٤٢٢/٤، والمحبر لابن الخطيب ٤٢١. وقد قدّم عمراً على عتبة.

وهي ـ رضي الله عنها ـ ممن سابقن إلى الإسلام في المدينة المنورة، ثم كانت من المتسابقات لمبايعة الرسول الكريم، ﷺ[1]. مع أمها، ونساء من قومها. . .

وأسرة سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ كلها، أسرة صحابية مسلمة مؤمنة. . . فهذا هو وتانكم أُمُّه وأختُه. . . وكذا أخوه فهو من الصحابة المجاهدين مع رسول الله ﷺ[2].

وقد جاء سعدَ بنَ الربيع ـ رضي الله عنه ـ الشرفُ من أطرافه فها هو زعيم قومه، وسيدهم، ونقيبهم، يوم بيعة العقبة ـ كما سيأتي . . . ـ ثم هو أيضاً أحد البدرين. . . ثم قد اتخذه الله ـ يوم أحدٍ ـ شهيداً.

وكانَ قبلُ قد نالته قرابةُ الصديق ـ رضي الله عنه ـ فقد مَتَّ إليه بسبب الأخوة في الإسلام، والمؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين ـ ونعمتِ الأخوة ـ حيث آخى رسول الله ﷺ بين أبي بكر الصديق وبين خارجة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ ابن عم سعد وزوج أمه، ثم كان أن أصهر إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنهما. . حيث تزوج ـ الصديق ـ أخت سعد بن الربيع لأمه ـ وهي:

حبيبةُ بنتُ خارجة، بنِ زيدٍ، بن أبي زهير، بن مالك الأغر وأمها: هُزَيْلَةُ بنت عتبة بن عمرو، بن خديج. . .[3] فسعد ابن الربيع أخوها لأمها، تزوجها أبو بكر الصديق رضي الله عنه

---

(١) الإصابة ٤/٤٠٦، والطبقات ٨/٣٥٩، والمحبر ٢٢١.

(٢) مغازي الواقدي ١/٣٢٩.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى ٨/ ٣٦٠.

فولدت له أم كلثوم ثم خلف عليها ـ بعد الصديق ـ خُبيب ابن أساف بن عتبة بن عمرو. وقد كانت رضي الله عنها من المسارعات إلى الإسلام، ثم إلى مبايعة رسول الله ﷺ...[1]
فقد كانت حبيبة هذه رضي الله عنها، فرعاً من هذه الدوحة الكريمة الطيبة، التي استضاءت بنور الإسلام.

«ذرّية بعضها من بعض»:

جميلة: بنت سعد بن الربيع:

أمُّ سعد الأنصارية رضي الله عنها.. وقد تكَنّت باسم أبيها وهي المقرئةُ، المحدثةُ، الفقيهةُ، العالمةُ، المتقنةُ، الواعيةُ، الفاضلةُ، الصحابيةُ الجليلةُ، الطيبةُ من نسلٍ طيبٍ... من أسرةٍ نذرتْ نفسَها، لله، ولرسوله، وللإسلام[2]. ولا جَرَمَ، فأبوها «قد نَصَحَ لله، ولرسوله، حياً وميتاً»[3].

وقد أخرج حديثها أبو داود عن أبي نعيم من طريق ابن إسحاق عن داود بن الحصين، قال: كنتُ أقرأ على أم سعد، بنت سعد ابن الربيع مع ابن ابنها، موسى بن سعد... فقرأتُ عليها ﴿والذين عَقَدت أيمانكم﴾ قالتْ: لا، ولكن ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾، إنها نزلت في أبي بكر وعبد الرحمٰن بن أبي بكر، حين أبىٰ أن يُسلِم، فحلف أبو بكر؛ أن لا يُوَرِّثه فلمّا أسلم، أَمَرَهُ الله عز وجل أن يُوَرِّثَه»[4].

---

(١) السابق، ابن حبيب، المحبر ٤٢١.
(٢) عبد المنعم الهاشمي، نساء الأنصار ٩٧.
(٣)، (٤) الإصابة ٤/٤٥٦.

وقد استشهد أبوها: سعدُ بن الربيع، رضي الله عنه، يوم أُحُدٍ وأمُّها حاملٌ بها فوضعتها بعد أشهر، فكفلها ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ وأمَّها وأختَها الكبرى ـ وطالما كان يحملها ـ وهي وليدة إلى رسول الله ﷺ، فيبارك عليها ويمسح رأسها ووجهها بيده الشريفة...»[1].

وكلما تقدّمت جميلة ـ أم سعد ـ رضي الله عنها ـ في العُمُرِ ـ كَبُرتْ في المنزلة، والقدر.

روى الطبراني: «أنها دخلتْ على أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فألقى لها ثوبَه، حتى جلستْ عليه، فدخل عمرُ ابن الخطاب، رضي الله عنه، فسأله، فقال: هذه ابنة رجلٍ خيرٍ مني ومنكَ...»[2].

فكما قدّر الصديق أباها، وعرف له مكانته، فكذا قدّر ابنته أمَّ سعد، فطرح لها ثوبَه لتجلسَ عليه...

وهي ـ رضي الله عنها ـ جديرة بهذا التكريم، فلأجلها نزلت آية المواريث، في القرآن ـ وهي صغيرة ـ كما سيأتي في مناقب سعد، وفضائله ـ ثم عاشت في كنف الإيمان، فوالدها ـ الشهيد...، ومربّيها الصديق... وزوجها رجلُ القرآن الأول، وترجمان رسول الله، وجامع الألسن، وصاحب راية الأنصار، يوم تبوك... ثم هو رأس المدينة في الفتيا والقضاء، والقراءة،

---

(١) الفَسَوي، المعرفة والتاريخ ١/٢٨١.
(٢) الإصابة ١/٢٧.

والفرائض إنَّه الصحابي الجليل: زيـد بن ثابت الأنصـاري الخزرجي[1]... رضي الله عنه.

وقد روت جميلة بنت سعد ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ[2] وعن كبار الصحابة والصحابيات، وروى عنها بعض الصحابة[3] وكبار التابعين.

ومما يدل على شغفها بالعلم، وتتبع طُرُقه، أنها كـانت تستنبىء أُمَّها، وغيرها ممن وعَيْنَ الحوادثَ عن أخبار النبي ﷺ، ومغازيه، كما كانت تتحرى الفقه والعلوم... فقد روى محمد ابن سعد عن محمد بن عمر: قال: سمعت عبد الرحمٰن بن أبي الزناد يقول: «كانت أم سعد بن الربيع بنت سعد ـ أم خارجة ابن زيد ـ تقول: «أنا يوم الخندق ابنة سنتين، وكانت أمي تخبرني ـ بعد أَنْ أدركتُ ـ عن أمرهم في الخندق»[4].

وكانت ـ رضي الله عنها ـ شغوفة بتتبع أخبار أُحُدٍ؛ تلك المعركة التي استشهد فيها أبوها... فقد روى الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ قال: ذكر ابن هشام، في زياداته، من طريق أم سعد ـ بنت سعد بن الربيع ـ قال [ت][5]: «دخلت على أم عمارة (نسيبة بنت كعب) فقلت: يا خالة أخبريني... فقالت:

---

(١) الطبقات الكبرى ٨/٣٥٩، والاستبصار ١١٥، ومعرفة الصحابة لأبي نعيم.
(٢) الاستيعاب ٤/٢٦٥.
(٣) الإصابة ٤/٤١٩، و ٤٣١، و ٤٥٦.
(٤) الطبقات الكبرى ٨/٣٥٩ ـ ٣٦٠.
(٥) في الأصل: قال.

خرجت ـ يعني يوم أحد ـ ومعي سقاء، وفيه ماء فانتهينا إلى رسول الله ﷺ. . . » الخبر[1].

وقد رُويَ عن طريق هذه الصحابية العالمة رضي الله عنها، قصةُ زواج أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها من النبي ﷺ. . . إذ هي من ثقات الرواة. . .[2].

وأخرج ابن مندة: من طريق مسعر، عن ثابت بن عبيد، قال: دخلت على [أم سعد] بنت سعد بن الربيع ـ يعني جميلة ـ وهي امرأة زيد بن ثابت، فقرّبتْ إليَّ رطباً، وتمراً، فقلت لها: أرى هذا ورثته عن أبيكِ[3]؟؟ فقالت: ما ورثت عن أبي شيئاً، قُتِلَ أبي قبل أن تنزل الفرائض[4].

وأخرج بن سعد؛ قال: أخبرنا محمد بن عمر، عن عبد الرحمٰن بن أبي الزناد، قال: حدثني إبراهيم بن يحيـى بن زيد ابن ثابت، قال: سمعتُ أم سعد بنت سعد بن الربيع تقول: «دخل عليَّ زيد بن ثابت[5] في خلافة عمر، فقال: «إن كنت تريدين أَنْ تكلّمي في ميراثك من أبيك، فتكلمي فإنَّ أمير المؤمنين عمر قد ورّث اليوم الحمل. قال: وكان قُتِلَ [أبوها][6] يوم أحد، وهي حَمل»[7].

---

(١) الإصابة ٤/٤١٨ و ٤٧٩.

(٢) الإصابة ٤/٢٨٢.

(٣) فقد كان أبوها ـ رضي الله عنه ـ من أكثر أهل المدينة مالاً.

(٤) الإصابة ٤/٢٦٣.

(٥) تعني زوجها رضي الله عنهما.

(٦) لم تكن في الأصل.

(٧) الطبقات الكبرى ٨/٣٦٠.

وأمها: (زوجة سعد بن الربيع):

وقع بعض الاختلاف، في اسمها، فابن حجر ـ رحمه الله ـ في ـ فتح الباري ـ يصرّح بأنه لم يقف على اسم امرأتي سعد ابن الربيع، ثم يحيل على (ابن سعد ـ في الطبقات الكبرى ـ) مستخرجاً اسم إحدى زوجتيه وهي ـ أم جميلة ـ يقول: «إلا أنَّ ابن سعد ذكر أنَّه كان له (سعد بن الربيع) من الولد، أم سعد، واسمها جميلة، وأمها (عَمْرَةُ بنت حزم)... وتزوج زيد ابن ثابت، أمَّ سعد، فولدت له ابنه خارجة، فيؤخذ من هذا تسميةُ إحدى امرأتي سعد».[1] انتهى.

ثم نقل الإمام الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في ترجمته جميلة (أم سعد) في الإصابة، عن (ابن سعد) قال: «قال: ابن سعد أمها (خلادة بنت أنس) بن سنان من بني ساعدة، ولدتها بعد قتل سعد بأشهر...»[2] في حين أنَّ (ابن سعد) يصرّح في كل المواطن، أنَّ اسمَ أمِّها: «عَمْرَة بنت حزم، بن زيد، ابن لوذان، بن مالك، بن النجار...»[3]الأنصَارية الخزرجية، الصحابية الجليلة، زوجة سعد البطل... وأم العالمة، الراوية، الصحابية الجليلة. رضي الله عنهم من آل بيت[4]. وقد كانت

---

(١) ابن حجر، فتح الباري ٨/٣٥٩.

(٢) ابن حجر، الإصابة ٤/٤٥٦.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى ٨/٣٥٩.

(٤) وأياً كان اسمها، فهذا لا يضير، وإذا كان ابن سعد رحمه الله قد صرّح بأن اسم أم جميلة (عمرة بنت حزم...) فلعل خلادة بنت أنس بن سنان... خالتها... (أي زوجة سعد الثانية) والله أعلم... وكلا الزوجتين، =

السيدة عَمْرة ـ هذه ـ من السابقات إلى الإسلام في المدينة المنورة وكما كان لسعد، وإخوانه شرف البيعة لرسول الله ﷺ، فكذلك كان لآل سعد بن الربيع؛ وأمه، ونسائه، وحرمه وبنتيه ـ فيما بعد ـ شرف هذه البيعة، المباركة.

وليست بيعتهن ـ رضي الله عنهن ـ خاصة، بل كانت مع سائر نساء الأنصار ـ رضي الله عنهن ـ .

وقد «أخرج الإمام أحمدُ، وأبو يعلى، والطبراني ـ ورجاله ثقات، كما قال الهيثمي (٦/٣٨) ـ عن أم عطية، رضي الله عنها قالت: «لمّا قدم رسول الله ﷺ، المدينةَ، جمع نساءَ الأنصار، في بيت، ثم أرسل إليهن عمرَ بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقام على الباب، فسلّم عليهن، فرددن السلام، فقال: أنا رسولُ رسولِ اللهِ ﷺ إليكن. فقلن: «مرحباً برسول الله ﷺ وبرسول رسول الله ﷺ. فقال: «تبايعن على أنْ لا تشركن بالله شيئاً، ولا تسرقن، ولا تزنين، ولا تقتلن أولادكن، ولا تأتين ببهتان تفترينه، بين أيديكن، وأرجلكن، ولا تعصين في معروف. قلن: «نعم». فمدَّ عمر يده من خارج الباب، ومددن أيديهن من داخل ثم قال: «اللهم اشهد»»[1].

= صحابية جليلة... وقد ذكر النيسابوري، عن مقاتل في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء...﴾ اسماً غير هذين الاسمين وهو (حبيبة بنت زيد، بن أبي هريرة وهما من الأنصار». (أسباب النزول: ١١١) وهذه التسمية ـ على الأرجح ـ وهم منه. والله أعلم.

(١) الكاندهلوي، حياة الصحابة ١/٢٥١ ـ ٢٥٢.

وهكذا نرى هذا البيت الطاهر قد نال شرف مبايعة النبي الكريم ومتابعته ﷺ. وصدق ما عاهد الله عليه.

وكما أسلم سعد بن الربيع رضي الله عنه وجميع أسرته الأدنون فقد عمَّ الإسلام أبناءَ عمومته كما عمَّ سائر الأنصار رضي الله عنهم... [1].

---

(١) عدّ الحافظ ابن حجر رحمه الله في الإصابة بعضاً من أبناء عمه مثل سويد الأنصاري ٢/١٠١.

ومن دلائل نبوة سيد الرسل ﷺ حيث قال: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام فمن وليَ منكم أمراً، يضرُّ فيه أحداً، أو ينفعه، فليقبلْ من محسنهم، ويتجاوزْ عن مسيئهم». التجريد الصريح: ٦١١٢. وفتح الباري: ٧/١٢١ حديث رقم (٣٨٠٠). أقول: فإن سيدنا الصحابي الجليل: سعد بن الربيع الأنصاري قد انقطع نسله وكذا نسل أحفاده من ابنته جميلة: أم سعد... كما في الطبقات والله أعلم.

الفَصل الثاني

جهوده في حقل الدعوة

- المبحث الأول: مقدمة في إسلامه
- المبحث الثاني: الدعوة والنِّقابة والبيعة
- المبحث الثالث: سعد بعد الهجرة. دياره والإخاء في الله



المبحث الأوّل

مُقَدِّمَةٌ في إسلامِه

إسلامه:

أَمَرَ سعد بن الربيع براحلته فَهُيئت له... فامتطى ظهرها، ويمم وجهه شطر مكة، ومعه الرهط من سادات الخزرج[1] ليؤدوا نسكهم، ويلتمسوا من قريش، أو من غيرها ـ من أحياء العرب ـ النصرة على بني عمهم ـ الأوسيّين ـ غداة اجتماعهم، في الأسواق. والموسم... وراحت المطايا تخب بالركب وتضع...

فدار بين النفر حديث الأمانيِّ رهواً... لاستعادة مجدهم المكلوم، وعزهم الذي ثَلَمه الأوسيون، وراحوا يَذَّكرون ما أَنْشَدَه أبناء عمهم في هزيمتهم الأخيرة (يوم بُعاث) وما عَيَّروهم به:

ألا أَبْلِغَا ذا الخزرجيَّ رسالةً
رسالةَ حقٍ لستُ فيها مُفَنِّدا

(١) الكاندهلوي، حياة الصحابة ١/١٠٤. وتعجيل المنفعة بزوائد رجال الأربعة: ١٤٧.

فإنّا تركناكمُ لدى الرَدْمِ غدوةً
فريقين مقتولاً به ومُطَرَّدا
صَبَحناكمُ مِنّا به كل فارس
كريم الثَنا يحمي الذِمارَ ليُحمدا
ونحن حماةُ الحرب ليستْ تَضِيرُنا
نسوق خميساً كالقطا مُتَبدِّدا

فَحَرِد القوم، وثار الدم في عروقهم، فاصطبغت وجوههم غضباً... وتخلّجت أجسامهم حنقاً، وعلت الهمهمة، وندّت ألفاظ الثأر والتوعد. ولم يهدأ الركب حتى رفع أحدهم عقيرته بصوت فخيم، ينقض قول الأول:

ونحن حماةٌ للعشيرةِ أينما
نكنْ، لا يبالوا أن يغيبوا ونشهدا
نُحامي على جَذْمِ الأغرِ[1] بمالنا
ونَبْذل حزراتِ النفوسِ لنُحْمَدا
صَبَحْناهمُ عندَ القتالِ بغارةٍ
فأصبحَ قيسٌ بعدَها مُتَلَدِدا
يَعضُّ على أطرافه كلما بدا
لنا فارسٌ يبغي القتال تنجدا

---

(١) الأغر واسمه مالك. وهو الجد الخامس لسعد بن الربيع، وانظر سلسلة النسب.

لكن الفتى الغطريف سعد بن الربيع، الذي كان مع جماعة قومه بجسمه، لم يكن فيما كان القوم فيه يخوضون. . .، فقد كان ثمة أمر يقلقه ويشغله، ويصرفه عما كانوا فيه، فاستغرق خلال هذه الرحلة. . . الميمونة. . .

لقد راح يتبادر إلى ذهنه، ويتجمع أشتات الأحاديث، التي كان يسمعها من يهود. . . في السوق، أو في منتدى القوم، أو بين النخيل. . . «أَنَّ نبياً مبعوثاً الآن قد أظلَّ زمانُه، نتبعه، فنقتلكم ـ معه ـ قتلَ عاد وإرم. . .»[1].

وإذا كانت راحلته ـ بين الرواحل ـ تسير به، وهو صامت، لا يأخذ، فيما قومه فيه،. . . فإنَّ الذي يكاد يطير بلُبِّه، تَمَثُّلُهُ مشاهد الصرعى من قومه ـ ومن بني عمه ـ معاً. . . وراحتْ نفسُه تسائله. . . لمن تهرق هذه الدماء. . .؟.

ولِمَ يتجدل سرواتُ بني قَيْلَة؟ ولمَ تسفحُ الأموالُ. . .؟ ولِمَ تهدرُ الطاقات في ميادين القتال؟. . . ومن فاز طوال ما يزيد على قرن من الزمن؟ وبما عاد عليه فوزُه؟. . . ولِمَ يقتل الأوسيُّ ابنَ عمه الخزرجي؟. . . ولِمَ يقتل الخزرجيُّ ابن عمه الأوسي. . .؟ . . .؟ . . .؟ هـذه أسئلة تَتْرى تُلذّع فؤاده وتحـزُّ نفسَـه، وتؤلمُه. . . ولا يجدُ لها جواباً! إلا ومضات من أقوال يهود. . . يتهددون بها الحيين معاً. . .

وانتفض سعد وهو يجتر ذكرى الهزيمة الأخيرة. . . المؤلمة

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية ١/٤٥٣، وابن كثير، البداية والنهاية ٢/١٤٦.

التي أوقعها بهم بنو عمهم ـ وهم في فرارهم ـ مصعدون، لا يلوون على أحد. . .، وقد وضعت الأوس فيهم السلاح، وطبّقت الحزَّ. . . وإذا بصوت، ودود، منبعث من تلقاء المنتصرين، يهيب بهم الهوادة، واللين، يقول يا معشر الأوس: ترفّقوا. . .؛ لا تُهلكوا إخوانكم. . .، فأصغى الأوس إلى الصوت وكفّوا. . . لكن صوتاً أبحَ أجشَّ يفوح منه اللؤم والحقد الدفين. . . ينبعث من آطام قريظة، وحصون. . . النضير. . . يرعد في جنبات الوادي وأحنائه. . . يفحُّ مؤلّباً الأوسَ على بني عمهم. . . ـ وقد رأى المعركة ـ قد وَنَتْ، وكادت الحرب تضع أوزارها. . . يصيح: يا معشر الأوس الغضارف. . . قد ـ واللهِ ـ أمكنتكم فرصتكم. . . فلا تفوّتوها. . . فلتبيدوهم عن بكرة أبيهم. . ولا يخدعنّكم ما ترون منهم، فلا يُؤمن أن يستعيدوا قوتهم، أو يوالوا عليكم. . . فيكرّوا. . . فلا تضعوا السلاح عنهم دون استئصالهم. . .

ثم راح الصوت الماكر ينشد أشعار ـ الأوسيين ـ ليبعث فيهم الزهو والحماس ويثير كوامن العنجهية. . . ـ تحريضاً ـ. . . :

كتيبة زينها مولاها
لا كهلها هُدَّ ولا فتاها

. . . كل تلك الأمور عرضت لسعد بن الربيع، والركب يغذُّ السير إلى مكة. . .

واستفاق مما هو فيه، فتمنى لو عاد أدراجه إلى (يثرب)

ليُحدث مع بني عمه صلحاً على أي وجه... وليعلن على ملأ قومه، ما هداه إليه تفكيره... فهم ضحية مكر وخبث وأن ليست الأوس أعداءهم الحقيقيين... بل الذين يمدون هؤلاء، وهؤلاء لإضعاف الفريقين، وإخضاعهم...

تمنى سعد أن يعود، ليحقق ذلك.. ولكن هيهات فمن يجيب؟؟؟.

وصل الركب إلى مكة. وحطّ رحله... في رحاب بيت الله وكنفه الحرام... فطفق القوم يصلحون شأنهم ليقوموا بنسكهم... ثم انخرطوا في صفوف الطائفين... يلبّون (مَنَاة).، وبين الفينة وأختها، يتفرسون وجوه العرب، ويتسقطون أخبارهم...

وصل الخزرجيون مكة، وهي تعجُّ بوفود العرب، وتغصُّ بأعيان القبائل... وسعاةُ قريش، وسفراؤُها، يتخللون كل حشد وجمع محذرين من محمدٍ (ﷺ)... ويقولون: إنَّه منّا... وقومُ الرجل أعرف به. فلا يخدعنّكم فله منطق وبيان...

وتعالمتِ القبائل ذلك، فراحت توصي أبناءها... احذروا فتى قريش؛ لا يفتنّنكم عن دينكم...

ورسول الله ـ عليه صلوات الله وسلامه ـ غيرُ مبالٍ بهم وبتنفير الناس عنه... وهو ـ ﷺ ـ لا يَنِي يعرض نفسَه ـ نفسي فداؤه ـ غيرَ ثَبِطٍ ولا وانٍ... ولا يبالي ـ في جَنْبِ الله ـ ما يصيبه، وما يشاع عنه وهو يقول: «يا بني فلان، إنّي رسول الله إليكم، آمُرُكم

أن تعبدوا الله. ولا تشركوا به شيئاً... وأنْ تَخْلَعوا ما تعبدون من دونه. من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني... وتمنعوني حتى أبيّن عن الله ما بعثني به...»[1].

يفعل هكذا مع كل قبيلة، ويقول: «ألا رجلٌ يَحمِلني إلى قومه؟ فإنَّ قريشاً قد منعوني أن أُبلّغ كلام ربي.......، فيأبَوْنَه ويقولون: «قوم الرجل أعلم به...» ولا يقبله أحدٌ»[2].

ويتناهى إلى سمع سعد بن الربيع - عند العقبة - صوتُ رسول الله - ﷺ - يقول: «لا أُكرِهُ أحداً منكم على شيء، بل أُريد أن تمنعوا مَنْ يؤذيني، حتى أُبلِّغَ رسالة ربي...».

فيتسمَّرُ سعد في مكانه... ويشعر بخفقان فؤاده يسري إلى سائر جسده... ثم ما لبث أن شعر بالطمأنينة والهدوء... وانتابه شعور غامر بسعادة لا يعرف مأتاها... ولا يستطيع إدراك كنهها... ولكنه يحسّ في الوقت ذاته كأنه عثر على ضالته النفيسة التي افتقدها منذ أمد بعيد... وطالما نشدها... فسرى بردُ الوجدان في أنحاء جسمه المكدود...

ويَهُم سعد أنْ يحدّث قومه بما هو فيه، ويحثهم على لقاء هذا الرجل الجميل، الوضاح، الوقور، الذي تلوح مخايل الصدق في قسمات وجهه ويتلألأ مُحيّاه بشراً وضياءً...

ويود سعد لو تقدم نحوه فيتمسّح به... ويمرغ وجهه في

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية ٣/١٣٦.
(٢) وفاء الوفا ١/٢٢٠.

صدره، وبين راحتيه. . . وأحسَّ كأنه مشدود إليه شداً. . . وأن نفسه لا تطيق عنه صبراً. ، وكأنه به منذ عهد قديم. . .

وانتبه سعد من أحاسيسه وأمنياته، وهو لا يكاد يصدق عينيه، أحقاً ما تريانه. . .؟ أصحيح أن هذا الرجلَ الميمون الطيب يتقدم نحوه؟؟؟ أجل! لقد تقدم رسول الله ﷺ مقبلاً بوجهه على سعد وأصحابه، يسألهم بتودد وعطف:

ـ «من أنتم»؟.

فابتدر سعد قومه مجيباً عنهم بلهجة مشوبة بالفرح والحب. . . :

ـ نحن نفر من الخزرج!.

فقال رسول الله ﷺ:

ـ «أمِنْ موالي يهود»؟.

ـ نعم!.

ـ «أفلا تجلسون أكلمْكم»؟.

ـ بلى، [بلى. . .].

فجلسوا إليه، فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم الإسلام. فقال سعد بن الربيع للنبي، ﷺ:

ـ أفلا تسمعنا شيئاً، من هذا الذي يُوحَى إليك، من ربك؟. . . فتلا رسول الله ﷺ، عليهم، قوله تعالى: ﴿وإِذْ قالَ

إبْراهِيمُ ربِّ اجْعَلْ هذا البَلَدَ آمِناً. . .﴾[1] إلى آخر السورة فرقَّ القومُ، وأخبتوا حين سمعوه. . .

واهْتَبَلَ سعد الفرصة، فابتدر قومه:

ـ يا قوم، تَعَلَّمُوا[2] ـ واللهِ ـ إنه لَلنبيُّ، الذي تُوعِدُكُمْ به يهودُ، فلا تسبقنّكم إليه. . .

فنظر بعضهم في وجوه بعض، وألقى الله الهداية في قلوبهم فأجابوا رسول الله ـ ﷺ ـ وصدّقوه، وشرح الله صدورهم للإسلام، فقبلوا من رسول الله ﷺ، وأسلموا جميعاً. . .

فالتفت سعد إلى رسول الله ﷺ فقال:

ـ يا رسول الله: «إنّا قد تركنا قومنا، ولا قومَ بينهم من العداوة والشر، ما بينهم. . . وعسى أن يَجمعهمُ الله بك. . . فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهمُ الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإنْ يَجمعْهمُ الله عليك، فلا رجلَ أعزُّ منك»[3].

فذكرى الأمس القريب بشجونه، وحُمرة دمائه، لا تبرح فؤاده ولا تغادر ذاكرته، وها هو اليوم، يتطلع إلى غدٍ قادم تزول فيه الإحن وأودية الثارات، وفيافي الأضغان، على يد هذا الرسول الكريم ـ ﷺ ـ الذي يسعى حثيثاً، لبناء صرح الإسلام وإقامة

---

(١) سورة إبراهيم، آية ٣٥ وما بعدها.

(٢) تعلَّموا: أي اعلموا.

(٣) السيرة النبوية ٢/٤٥٣، والبداية والنهاية ٣/١٤٦ ـ ١٤٧، والكاندهلوي، حياة الصحابة ١/١٠٤، والسيرة الحلبية ١/٤٠٠.

دولة الوحي، حيث تستنير الأرض بهدي السماء. . .[1].

وشهد ذلك اليومُ الأزهرُ الأغرُ إسلامَ الصحابي الجليل سعد ابن الربيع الأنصَاري مع بقية النفر من قومه[2]. . . . ـ رضي الله عنهم ـ حيث كانوا نواة الإسلام في المدينة المنورة.

---

(١) انظر حديث أم سعد: جميلة بنت سعد بن الربيع رضي الله عنها وعن أبيها تروي خبر إسلام الأنصار. ص (٦١) من هذا الكتاب. ورضي الله عنها أم المؤمنين السيدة عائشة الصديقة حيث قالت: «كان يوم بُعاث، يوماً، قدّمه الله لرسوله ﷺ. وقد افترق مَلَؤُهم، وقتلت سرواتهم، وجرّحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام. (التجريد الصريح: ٢/٦٠).

(٢) اعتمدت في قصة إسلام سعد بن الربيع رضي الله عنه على رواية في حياة الصحابة (١/١٠٤) وقد ورد فيها اسم سعد بن الربيع مع بضعة نفر، حين لقوا النبي ﷺ، اللقاء الأول. وكانوا نواة إسلام الأنصار رضي الله عنهم. . . . في حين أن بعض الروايات لا تعدّه معهم. . . وأياً كان فهو ـ رضي الله عنه ـ من السابقين إلى الإسلام من الأنصَار ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ وذكر الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: إسلام سعد، فقال: «أحد السابقين الأولين من الأنصار. . . وأحد الفرسان المشاهير روى عنه من كلامه، سعد بن معاذ، وعبد الرحمٰن بن عوف، وأنس بن مالك، في صحيح مسلم والبخاري من طريق إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف عن أبيه. . .» (تعجيل المنفعة، بزوائد رجال الأئمة الأربعة: ١٤٧).

المبحث الثاني

الدَعْوَة وَالنّقَابَة وَالبَيْعَة

- ١ -

منذ شهد سعد بن الربيع الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ عند رسول الله ﷺ؛ أنه لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله... خلع أولَ ما خلع عنه أرْدِية الجاهلية، ونزع كل أمر من أمورها مهما كان علوقه بنفسه، وتحرر من كل سلطان لها... واقتنع أن يكون حسبُه من الدنيا، أن يعيش جندياً للإسلام...

فما إن فَصَل من مكة، قافلاً إلى المدينة... حتى تغيّر كل شيء فيه، فكأنه مخلوق جديد.

تلك سويعات قليلة فقط، أمضاها عند العقبة بحضرة الرجل الميمون، النقي السريرة والعلانية ـ ﷺ ـ جعلت منه إنساناً جديداً غير الذي كان...

لم تعد الدنيا تَشْغَلُه بشيء... وراح يحثُّ راحلته علّها تجدُّ في السير أكثر وأكثر... ويستعجل قومه، فقد كان بشوق عظيم للمدينة...

لم يكن يرجو الوصول، إلى المدينة، ليجلس إلى زوجتيه

ـ الشابتين ـ وقد طال عهده بهما. . . ولا ليلاعب وليدته القسيمة الوضيئة. . . التي خلّفها في شهورها الأولى. ـ يوم رحل إلى مكة ـ وهي تشيّعه بنظراتها، وثغرها يفتّر عن ابتسامة حلوة مشرقة. . .

ولا ليرعى ماله وبساتينه. . . ولا ليتفقد أحواله وأُجراءه. . . لا. . . لا لنحو من هذا أبداً. . . بل لم تعد كل هذه الحيوات تخطر له على بال. . . أو تعدل عنده شيئاً.

بلى !!! لقد تعجّل الوصول، إلى المدينة، لأمر أعظمَ في نظره من كل ذلك. . . لقد قطع على نفسه عهداً أمام رسول الله ﷺ. . . عندما قال له: «لقد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم. . . فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمركَ. . . فإن يجمعْهم اللهُ عليكَ فلا رجلَ أعزُّ منك. . .».

ووصل المدينة بعد تململ، وصبر نافد. . . فخفَّ إليه أهله، ومواليه، وقومه، يستقبلونه بالبشر والترحاب مهنئين بسلامة إيابه. . . فردّ عليهم تحيتهم بأحسنَ منها.

لكنَّ أهلَه الأدنين نظروا في وجهه شيئاً ما عرفوا ما هو. . . فكأنه ينوء بحمل أوقره. . . فقد رجع بغير الوجه الذي ذهب به.

فما إن استقر قراره في المدينة، وتطامنتْ أنفاسُه من وعثاء سفره، حتى طفق يتخلل جماعات قومه وبني عمه ويغشى مجالسهم، في حدائقهم وأسواقهم، وسكَك طرقهم يدعوهم، إلى ما دعاه إليه رسول الله ـ ﷺ ـ مع رهطه. . . ويعرض عليهم

الإسلام، يحادث هذا، ويجادل ذاك، ويذكّر... بكلام يهود، وتوعّدِهم ـ بقتل الحيين ـ. من ـ أبناء قَيْلَة ـ مع ظهور نبي آخر الزمن، الذي قد أظلَّ زمانه... ويخبر أولئك بمستقبل الإسلام الواعد، والحياة الوادعة الآمنة في ظلاله الوارفة الرحبة. وسلخ عمراً من عمره... ولا حديث له ـ والنفر معه ـ إلا حديث هذا الدين، ومستقبله...

وغدت الدعوة تخالط شَغاف قلبه، وبين جنبيه همها أنى توجه، وأينما سار... ولم تكنْ هذه الدعوة تتمطى في زاوية صامتة من حياته وإنما ارتسمت على محياه ينبض بها قلبه، ويلهج بها لسانه وتتقراها أحاسيسه...

لقد فهم سعد بن الربيع الدعوة واستقاها من موردها العذب فَعَلَّ ونهل... وتملّى من معانيها فظهرت على حواسه وصاحبت حركته اليومية... فالدعوة إلى الله وهداية الحائرين غاية في حياة سعد بن الربيع، وليست وسيلة... لتثبيت زعامته على قومه، أو أكل أموالهم بها... أو لتحقيق نفع شخصي أو لبناء أمجاد لنفسه أو... لا لم تكن الدعوة في يوم من الأيام كذلك وهي لن تفلح إن غدت كذلك... ولم تكن الدعوة في غوافل حياته... بل في سويداء قلبه... منحها شرخ شبابه، وصفوة وقته، وجلّ اهتمامه... ثم نال أسمى أمانيه فقضى شهيداً في سبيلها.

أجل لقد وهب سعد بن الربيع رضي الله عنه نفسه لدعوته التي آمن بها وأخلص... ونذر عمره لتحقيق وعده الذي قطعه ـ على نفسه ـ لرسول الله ﷺ... وانهمك سعد وإخوانه فيما هو

في سبيله، فما كاد يستدير العام حتى «فشا الإسلام في المدينة فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ»[1]. وفيها الألسنة لَهِجَةٌ بالإسلام وعظمته.

وكما فرح المسلمون بإسلامهم، فقد فرحوا كذلك لأمر عظيم بالنسبة إليهم... إنه أمر طالما أقضَّ مضجعهم، وهزّ كيانهم وزلزل أقدامهم... لقد فرحوا بنزع الضغائن واستلال السخائم من نفوس القوم... فغدت تباشير الإخاء والمودة تلوح بين المسلمين من أبناء العم...

هذا أمر لم يقمْ لهم في بال... لقد كانوا يعدّون العدة لاستئناف القتال، وإدراك الثارات فإذا بهم اليوم على جادة التآلف والإخاء... ﴿لو أَنْفَقْتَ ما في الأَرْضِ جميعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ، ولكنَّ الله أَلّفَ بينهم...﴾[2].

فمن كان يزعم أَنَّ الأوسيَّ يصافحُ ابنَ عمِه الخزرجيّ قبل اليوم... ولكنَّه الإسلام ثم جهود المخلصين لله ودعوته... وإنه الإيمان تمكَّن من أولئك القوم الأخيار، فعادوا إخواناً متحابين، واستعدوا للالتقاء برسول الله ﷺ، في العقبة...

- ٢ -

ويعود القوم إلى المدينة من موسم هذا العام، بعد لقاء النبي ﷺ وبيعةِ العقبة الأولى، ومعهم سفير رسول الله ﷺ...

---

(١) البداية والنهاية ٢/١٤٧.

(٢) سورة الأنفال آية: ٦٣.

الداعيةُ الشاب... بل زين الشباب؛ الصحابي الجليل: مصعب ابن عمير ـ رضي الله عنه ـ....

وفرح سعد بن الربيع واستبشر بقدوم أخيه ـ في الدعوة ـ مصعب بن عمير...

فهنيئاً لكِ يا مدينة الإيمان والنور...

ولله درّك يا ذاتَ الآطام... ما هذه الأعراس التي تشهدين اليوم؟ وما الذي أحال ليلك البهيم إلى فجر مشرق وضّاء... بعد جهل الجاهلية، وظلماتها... التي آذنت بالغروب... وها هو بدرٌ جديد يحوم في سمائِكِ بجبينه الأغر، يفتِّق غيوماً متلبّدة ويخرج مشبوباً من سُحُبِهِ ليطلّ خلالها، مُعْلِناً بزوغ فجر جديد، وملحمة قادمة... ينسج خيوطها أمثال سعد بن الربيع الأنصَاري ومصعب بن عمير... (رضي الله عنهم أجمعين).

ولقد كانت نفس سعد بن الربيع في شغف عجيب لكلام الله عز وجل وهدي رسول الله ﷺ... يُؤَديهِما مصعب بن عمير... فلزم سعد مصعباً لا يفارقه... يكون معه في مجالس قومه... يؤازره ويشد عضده في الدعوة إلى الله، ودينه... يعرّفه الناس في المدينة وطبائعهم... وأحوالهم حتى أسلم جلُّ أهل المدينة. ونَعِم المسلمون فيها بعبادة الله ودعوتهم إليه... ومضى سعد بن الربيع يعيش أصفى أيام حياته، وأعذبها، وأمتعها، بملازمة هذا المقرىء المخلص ـ مصعب ـ بما يتحفه به من رائق الحديث، وصادقه، وبما يتلو على القوم من كتاب الله... ويفقههم في دينه... ويقيم فيهم الجمعة

والجماعة... ويدلهم على الخير، ويُطيِّب مجالسهم بذكر رسول الله ﷺ وسيرته... ودعوته وما كابده وما يعانيه...

أجل، لقد نعم سعد بن الربيع وقومه بإسلامهم، وما أكرمهم الله به... فقد عرفوا أنفسهم، التي خلقها الله في أحسن تكوين... ولمسوا تكريم الله إياهم بالإسلام، وما أفاء عليهم من الهدى والنور. فراحوا يتنقلون في جنبات مدينتهم الطاهرة المعطاء... أعزة، سعداء آمنين حتى لكأنهم في ظلال الجنان...

لكنَّ أمراً واحداً كان يكدّر على سعد سعادته، ويعكّر صفاءه... لقد كان يتنامى إليه حيناً بعد حين، أخبار من مكة، تقلقه وتزعجه.

لقد ركبت قريش، كلَّ صعب وذلول في إيذاء مسلمي مكة ويقضُّ مضجعة ما يلاقي رسولُ الله - ﷺ - من سفاهة قريش وطغيانها، واشتداد أذاها له - ﷺ -، ولأتباعه رضي الله عنهم.

فما هو إلا أنْ خرج سعد بن الربيع على قومه - ذات يوم - وهم جَميعٌ فقال:

- يا قوم، هداكم الله، «حتى متى نترك رسول الله، ﷺ، يطول، ويُطرَّد في جبال مكة... ويخاف...»[1].

فثار القوم قائلين: صدق - والله - ابن الربيع.. علامَ نحيا في أمن ودعة... ورسول الله - ﷺ - فيما هو فيه. فقال سعد: أما

(١) البداية والنهاية: ١٥٧/٣.

ـ والله ـ لو شاء رسول الله ، لنميلنَّ على مكة بأسيافنا، فنستلّه من بينهم .

وما زال سعد بقومه... حتى أُجمَعوا رأيهم... وحزبوا أمرهم... لمبايعة رسول الله ﷺ، ولتتشرف مدينتهم بحضرة رسول الله ﷺ[1].

ـ ٣ ـ

﴿إنَّ اللَّهَ اشْتَرى من المؤمنين أنْفُسَهمْ وأموالهم ، بأَنَّ لهمُ الجنّةَ، يُقَاتِلونَ في سبيلِ اللهِ، فَيَقْتُلون، ويُقْتَلون، وعداً عَلَيهِ حقّاً، في التَوْراةِ والإِنْجِيلِ ، والقُرآنِ. وَمَنْ أوفى بعهده من الله . فاسْتَبشِروا بَبْيْعِكُمُ الذي بايَعْتُمْ به، وذلكَ هو الفوزُ العظيم﴾[2].

بيعة العقبة الثانية[3]:

وصل مصعب بن عمير، سفير رسول الله ﷺ وداعيته ـ مكةَ ـ ، قادماً من المدينة، يحمل صورة عن وضع المسلمين فيها، ويعرض على رسول الله سيرَ عمله خلال عام كامل...

كما أبلغ النبيَّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ رغبةَ الأنصار في تحوله ـ ﷺ ـ إليهم، ضناً به، عما يكابد من قومه في مكة...

وقد وصل مكةَ، وفدُ حجّاج الأنصَار، وكانوا ثلاثةً وسبعين رجلاً، وامرأتين مع حجّاج قومهم من المشركين...

---

(١) البداية والنهاية ٣/١٥٧.

(٢) سورة التوبة آية : ١١١.

(٣) الروض الأنف ٢/١٨٩ وما بعدها.

وقدم الأنصار على رسول الله ﷺ، وفيهم مَنْ لم يَرَهْ بعدُ. ولم يعرفْه حتى التقوا به في المسجد الحرام.

وواعدوا رسولَ الله - ﷺ - جانبَ العقبةِ ليلة الثاني عشر من ذي الحجة سنة إحدى قبل الهجرة، فبايعهم - ﷺ - على الإيواء والنصرة، والاستقامة على الإسلام وأحكامه.

وقد وردت روايات عديدة عن هذه الحادثة المباركة حتى لقد باهى بعضهم بها وفاخر... وحتى كان يقدمها على غزوة بدر... ولا يعدلها بها...

وقد وقع اختلاف يسير جداً في أسماء بعض النقباء الاثني عشر. فبعض الروايات تذكر: (رفاعة بن عبد المنذر الأوسي) وبعضها استبعدته، وعدّت مكانه: (أبا الهيثم التيهان).

واستشهدت الروايات بأبيات شعرية[1] نسبت للصحابي الجليل الشاعر كعب بن مالك... رضي الله عنه، سَرَدَ فيها أسماء نقباء بيعة العقبة.

وثمة رواية حول العقبة - ولعلّها من أثبت الروايات، وأطولها - يرويها عبد الله عن أبيه كعب بن مالك، الأنصَاري... - يؤيدها حديث عنه، في صحيح الإمام البخاري - رحمه الله -.

وقد أجمعت الروايات - كلُّها، جميعاً - على كون الصحابي الجليل سعد بن الربيع الأنصَاري واحداً من الاثني عشر

---

(١) سَتَرِد في فصل (أحد يوم الملحمة)، ص (١٤٤).

نقيباً... وبعضها تجعل ترتيبه الثاني[1]، من بين النقباء... رضي الله عنهم أجمعين:

قال ابن إسحٰق: «حدثني معبد بن كعب بن مالك ـ أَنَّ أخاه عبدَ الله وكان من أعلم الأنصار ـ حدّثه أنَّ أباه كعباً، كان ممن شهد العقبة، وبايع بها... قال خرجنا ـ حجّاجاً ـ مع مشركي قومِنا وقد صَلَّينا وفقهنا، ومعنا البراء بن معرور، سيدنا وكبيرنا ـ فذكر شأن صلاته إلى الكعبة[2]. قال: فلّما وصلنا إلى مكة، ولم نكن رأينا رسول الله ﷺ، قبل ذلك فسألنا عنه، فقيل هو مع العباس، في المسجد، فَدَخْلنا، فجلسنا إليه، فسأله البراء عن القبلة، ثم خرجنا إلى الحج، وواعدناه العقبة من أوسط أيام التشريق، ومعنا عبدُ الله ـ والدُ جابر ـ ولم يكن أَسْلَم بعدُ، فعرّفناه أمر الإِسلام، فأسلم حينئذٍ وصار من النقباء.

قال: فنمنا تلك الليلة، مع قومنا، في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا، لميعاد رسول الله ﷺ، نَتَسَلَّلُ تَسَلُّلَ القطا، مُسْتَخْفِينَ حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن، ثلاثة وسبعون رجلاً[3] ومعنا امرأتان، من نسائنا؛ نسيبة بنت كعب المازنية ـ أم عمارة ـ، وأسماء بنت عمرو بن عدي السلمية ـ أم منيع ـ قال كعب:

---

(١) السيرة النبوية ٢/٤٦٦، والمحبر ٢٦٩، والبداية والنهاية ٣/١٥٩، ووفاء الوفا ٢/٢٣٠.

(٢) وكانوا يصلون إلى بيت المقدس، جهة الشام.

(٣) أربعون من ذوي أسنانهم، وثلاثون من شبابهم، وسعد بن الربيع شيخ شبابهم ـ رضي الله عنهم ـ.

فلما اجتمعنا ـ في الشعب ـ ننتظر رسولَ الله ﷺ، حتى جاءَنا، ومعه العباسُ بن عبد المطلب. وهو ـ يومئذٍ ـ على دين قومه إلا أنه أحبَّ أن يَحْضُر أَمْرَ ابنِ أخيه، ويَتوثَّقُ له. . .

فلما جلس كان أولَ متكلم العباسُ بن عبد المطلب. . فقال: يا معشرَ الخزرج[1]:

ـ إن محمداً مِنّا حيثُ قد علمتم، وقد منعناه من قومنا، مِمَنْ هو على مثل رأينا فيه، فهو في عزة من قومه، ومنعة في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحيازَ إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له، بما دعوتموه إليه، ومانعوه مِمَنْ خالفه، فأنتم وما تحملّتم، مِنْ ذلك، وإِنْ كنتم تَرَون أَنَّكم مُسْلِمُوه، وخاذلوه ـ بعد الخروج إليكم ـ، فمن الآن فدعوه، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده. قال: فقلنا له: قد سَمِعْنَا ما قلتَ، فتكلَّمْ يا رسولَ اللهِ فَخُذْ لنَفْسِكَ، ولربِكَ، ما أحببتَ.

قال: فتكلمَ رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال:

«أُبـايِعُكمْ على أن تمنعوني، ممـا تمنعون منـه نسـاءَكُمْ وأبناءَكُمْ»[2] قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، فقال:

---

(١) كانت العرب تُطْلِق اسم الخزرج على الأوس والخزرج معاً للتغليب. . . ». فتح الباري ٢٢١/٧.

(٢) أخرج البخاري بسنده: أن عبادة بن الصامت، من الذين شهدوا بدراً مع رسول الله ـ ﷺ ـ ومن أصحاب ليلة العقبة ـ أخبره أن رسول الله ﷺ، قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ: تعالوا بايعوني؛ أنْ لا تشركوا بالله شيئاً، ولا =

- نَعَم - فوالذي بعثك بالحق، لنمنعنَّكَ مما نمنع منه أُزُرَنا[1] فبايِعْنا يا رسول الله، فنحن - واللهِ - أبناء الحروب، وأهل الحلقة... ورِثْناها كابراً عن كابر.

فاعترضَ القولَ - والبراءُ يكلّم رسولَ الله ﷺ - أبو الهيثم التيهان، فقال:

- يا رسول الله: «إنَّ بيننا وبين الرجال[2] حبالاً، وإنّا قاطعوها... فهل عسيتَ، إنْ نحن فَعلْنا ذلك، ثم أَظْهَرَكَ اللهُ،

= تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه، بين أيديكم، وأرجلكم ولا تعصوني في معروف، فمن وَفَى منكُمْ فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فستره الله، فأمره إلى الله؛ إنْ شاء عاقبه، وإنْ شاء عفا عنه.

قال: فبايعناه على ذلك».

ثم ساق حديثاً آخرَ مشابهاً له في اللفظ... عن عبادة بن الصامت نفسِه... رضي الله عنه...». فتح الباري ٧/٢١٩.

وفي رواية أخرى، عن عبادة بن الصامت، رضي الله عنه، قال: «إنّا بايَعْنا رسولَ الله - ﷺ - بيعةَ الحرب، على السمع والطاعة في عسرنا، ويسرنا، ومَنْشَطِنا، ومَكْرَهِنا، وأثَرة منّا، وأن لا ننازعَ الأمرَ أهلَه». «وعلى الأمْرِ بالمعروف، والنهي عن المنكر، وعلى أن نقول في الله، لا تأخذنا فيه لومةَ لائم، وعلى أن ننصر رسول الله، ﷺ، - وإذا قدِم علينا (يثربَ) - مما نمنع به أنفسنا، وأرواحنا، وأبناءَنا ولنا الجنة...». البداية والنهاية ٣/١٦١. إلى آخر ما هنالك من روايات متقاربة في اللفظ والمعنى.

(١) كناية عن النساء.

(٢) يعني اليهود.

أَنْ ترجع إلى قومك، وتدعَنا؟. قال: فتبسَّم رسول الله، - ﷺ - ثم قال:

- «بلِ الدَّمُ، الدَّمُ، والهَدْمُ، الهَدْمُ، أَنا منكم، وأنتم مني، أُحارِبُ من حاربتم، وأُسالم من سالمتم...». ثم قال رسول الله، ﷺ: «أَخْرِجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً، يكونون على قومهم، بما فيهم، فأَخْرَجوا له تسعةً من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهم:

١ - أسعدُ بن زُرارَة....

٢ - سعدُ بنُ الربيع ...[1].

٣ - عبدُ الله بنُ رواحةَ....

٤ - رافعُ بن مالكٍ العجلانُ....

٥ - البراءُ بن معرورٍ....

٦ - عبدُ الله بن عمرٍو....

٧ - عبادةُ بنُ الصامتِ....

٨ - سعدُ بنُ عبادةَ....

٩ - المنذرُ بنُ عمرٍو....

١٠ - أُسيدُ بنُ الحُضَيرِ....

١١ - سعدُ بن خَيْثَمةَ....

١٢ - رِفاعةُ بن المنذرِ....

رضي الله عنهم أجمعين[2].

---

(١) صاحب هذه الترجمة.

(٢) السيرة النبوية ٢/٤٦٧، والبداية والنهاية ٣/١٥٩، والمحبر ٢٦٨ - ٢٦٩.

قال ابن هشام: وأهل العلم يَعُدُّون فيهم (أبا الهيثم ابن التيهان)، ولا يَعُدُّون رفاعة. والله أعلم.

ثم قال رسول الله ﷺ، للنقباء:

- «أنْتُمْ على قومكمْ، بما فيهمْ، كفلاءُ، ككفالة الحواريّين، لعيسى بنِ مريم وأنا كفيلٌ على قومي».

قالوا: - نعم -.

فاعترض العباس بن عبادة، بن نَضْلة الأنصاري، أخو سالم ابن عوف، قائلاً:

- يا معشر الخزرج، هل تدرون، علامَ تبايعون، هذا الرجل؟. قالوا: - نعم -، قال:

- «إنكم تبايعونه، على حرب الأحمر، والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً... أسلمتموه!!! فَمِنَ الآن، فهو - واللهِ إنْ فعلتم - خزيُ الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له، بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف، فخذوه، فهو - والله - خير الدنيا والآخرة». قالوا:

- «فإننا نأخذه، على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف. فما لنا بذلك يا رسول الله، إنْ نحن وَفَّينا؟ قال (ﷺ):

- «الجنة...»[1].

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٤٧٠، وتاريخ الطبري ١/ ٥٦٣، والبداية والنهاية ٣/ ١٦١.

ويا له من موقف عظيم من هذا الصحابي (العباس بن عبادة ـ ابن نضلة ـ) فلقد أراد بِقَالتِهِ تلك أن يؤكِّد عزم أصحابه، ويوَثِّق بيعتهم لرسول الله ﷺ، على طريقة تحدي الرجال وإثارتهم، وشدِّ عزائمهم . . . وما قاله: «إلا ليشدَّ العقد لرسول الله ﷺ في أعناقهم»[1].

ويشاء الله أن يكون لأسرة سعد بن الربيع ـ المؤمنة ـ سهم وافر في هذا الشرف الأسنى، فقد عَرَضَ ـ الصحابي الجليل ـ الأمير، الشاعر: عبد الله بن رواحة ـ وهو ابن عم سعد ابن الربيع ـ لرسول الله ﷺ، قائلاً:

ـ يا رسول الله، اشترط لربِّكَ، ولنفسكَ، ما شئتَ. فقال:

ـ «اشترطتُ لربي، أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أَنْ تمنعوني مما تمنعون منه أَنْفُسَكُمْ». قال: فما لنا إِنْ فعلنا ذلك قال: ـ «الجنة» ـ[2].

فما تمالك سعد بن الربيع، وقد سمع «الجنَّة» من فم رسول الله ﷺ أن صاح ـ جذلان مبتهجاً ـ «ربح البيع ربح البيع . . . والله لا نقيل، ولا نستقيل»[3] فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المؤمنينَ أَنْفُسَهُمْ، وأَمْوَالَهُمْ، بأَنَّ لَهُمُ الجنّة . . .﴾ الآية[4] فضرب النقباء على يد رسول الله ﷺ، مبايعين له على ما اشترط.

---

(١) السيرة النبوية ٢/٤٦٩.
(٢) وفاء الوفا ١/٢٣١.
(٣) أصل هذا الحديث عن كعب بن مالك رضي الله عنه.
(٤) سورة التوبة آية: ١١١.

فلمّا فرغوا، قال رسول الله ﷺ: «أَخذتُ وأَعطيتُ»[1]. قال: فلمّا بايع القومُ رسولَ الله ﷺ، صرخَ الشيطانُ من رأس العقبة، بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب[2] هل لكم في مُذَمَّم، والصُبّاءِ معه، قد اجتمعوا على حربكم؟. فقال رسول الله ﷺ: «هذا أَزَبُّ العقبة، هذا ابن أَزيب[3]، اسْتَمِعْ، أَي عدوَ الله، أَمَا واللهِ لأَفْرَغَنَّ لكَ». ثم قال النبي، ﷺ: «إِرْفَضُّوا إلى رَحالكم». فقال العباس بن عبادة بن نضلة: «يا رسول الله، والذي بعثك بالحق إن شئتَ لنميلنَ على أهلِ مِنى غداً بأسيافنا». فقال رسول الله، ﷺ: «لم نُؤمَرْ بذلك، ولكنِ ارجعوا إلى رحالكم».

فرجعنا إلى مضاجعنا، فنمنا عليها. . .، فلمّا أصبحنا، غَدَتْ علينا جِلَّةُ قريشٍ، حتى جاؤونا، في منازلنا، فقالوا:

ـ «يا معشر الخزرج، إنَّه قد بلغنا أَنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا. وإنه ـ واللهِ ـ ما مِنْ حي من العرب، أبغضَ إلينا من أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم».

قال فانبعثَ مَنْ هناك من مشركي قومنا، يحلفون ما كان من هذا الشيء، وما عَلِمناه، قال ـ وصدقوا ـ، لم يعلموا قال: وبعضنا ينظر إلى بعضٍ. . . .

---

(١) فتح الباري ٧/٢٢٣.

(٢) الجباجب: المنازل.

(٣) يقصد اللعين بـ مذمم، (محمداً) ﷺ. والصبّاء: جمع صابىء، وأزب يعني الشيطان أو صفة له.

ثم قام القوم، وفيهم الحارثُ بن هشام بنِ المغيرة، المخزومي وعليه نعلان جديدان قال[1]: فقلت كلمةً كأني أريد أن أشرِك القومَ بها: ـ يا أبا جابر، أما تستطيع أنْ تتخذ ـ وأنت سيّدٌ من ساداتنا ـ مثلَ نَعْلَيْ هذا الفتى من قريش؟. قال: فسمعها الحارث، فخلعهما من رجليه، ثم رمى بهما إليَّ، فقال: والله لتنتعلنَّهما.

فقال أبو جابر: ـ .

ـ «مَهْ أحفظتَ[2] ـ واللهِ ـ الفتى، فارْدُدْ عليه نعليه». قال: قلت: لا والله لا أردهما، فألٌ ـ واللهِ ـ صالح، واللهِ لئن صدق الفأل لأسْلُبنَّه...».

تلكم تفاصيل بيعة ـ العقبة الثانية ـ والتي كان سعد بن الربيع رضي الله عنه أحد أبطالها النقباء... والمسؤول عمن قِبَلَهُ من قومه.

وقد تعامل مع بيعته بصدق، فلا تسألنّ عن إخلاصه لدعوته... التي بايع عليها... تلمح صدق لهجته من كلماته القصار مع النبي ﷺ إبان بيعته...، «فما لنا يا رسول الله إن وفّينا بذلك...» ويجيبه المصطفى ﷺ بمثل وجازة صدقه: «الجنة»... ولا تعجبن لابتهاج سعد وسروره... فصاح ـ وقد أيقن الغُنْمَ والفوز ـ ربح البيع والله، ربح البيع والله... فهذا

---

(١) قال: يعني الراوي كعب بن مالك رضي الله عنه.
(٢) أحفظت: أحرجتَ أخجلت وأغضبت.

تأكيد منبعث عن يقين جازم... أعقبه بقَسَم واللهِ: لا نقيل ولا نستقيل... ثم كان إقرار المولى ـ جلَّ جلاله ـ : يُثْبِتُ تلك الصفقة ويباركها!.. ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرى مِنَ المؤمنين أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ...﴾ الآية.

ولا غرو فإنَّ الله ـ سبحانه ـ قد اطَّلعَ على قلوب عباده فوفّق ـ من يستأهل ـ لهذه المواقف العظيمة... ﴿وما يُلَقَّاها إلا ذو حظٍ عظيم﴾. وقد روى الحافظ ابن كثير عن البيهقي ـ رحمه الله ـ بيانَ فضل النقباء ـ ليلة العقبة ـ... قال: «حدثني شيخ من الأنصار، أن جبرائيل، كان يشير إلى رسول الله، ﷺ، إلى من يجعله نقيباً... ليلة العقبة...»[1].

(١) البداية والنهاية ٣/١٦٠، والسيرة الحلبية ١/٤١١، والروض الأنف ٢/١٩٠.

المبحث الثالث

سعد بعد الهجرة
دياره والإخاء في الله

- ١ -

ما إنْ أيقنت قريش أمرَ البيعة، . . . حتى طاش صوابها وعلمت أنَّ نهايتها قد دنت، وأن محمداً (ﷺ)، قد صار له أتباع بالمدينة وأنْصار[1] فصبّتْ حقدها، وغيظها، وطغيانها على المسلمين، في مكة، صبّاً، فنزل قوله تعالى: ﴿أُذِنَ للذين يُقاتَلُونَ بأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وإنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لقدير الذين أُخرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ بغيرِ حَقٍ إلا أَنْ يقولوا ربُّنا الله. . . .﴾[2] فأمر رسول الله ﷺ، المسلمين بالهجرة إلى المدينة. . . فطفقوا يتقاطرون عليها أرسالاً، ويهاجرون إليها، أشتاتاً وجماعات. . . فارّين بدينهم من عُتُو قريش. . . تاركين - في سبيل الله - كل عَرَض الدنيا من الأموال، والديار، والمتاع. . . لينزلوا على

---

(١) لمَّا أمرَ رسول الله ﷺ، أصحابه بالهجرة إلى المدينة قال لهم: «إنَّ الله قد جعل لكم، إخواناً وداراً تأمنون بها. . .»فخرجوا أرسالاً. البداية والنهاية: ٢/١٦٧.

(٢) سورة الحج الآية: ٣٩ - ٤١.

إخوانهم الأنصَار الذين واسوهم بمالهم... وآووهم في ديارهم... فمنهم من نجا فنزل دار الأمن، والأمان، والإيمان، ومنهم من حُبِسَ وفُتن فصابر وصبر...

ويتناهى إلى قريش، ما عليه المهاجرون في المدينة، مِنْ نُصْرَة، وإِيواءِ، وإعزاز وإكرام، فتخشى أن يخرج إليهم سيّدُهم محمدٌ (ﷺ) فلا تأمن أَنّ ينظّم صفه ويرصّه فيكرّ عليها بمن معه من المهاجرين والأنصار... فتآمرت عليه، وأجمعت على قتله، والتخلص منه... ولكنَّ رعاية الله ولطفه، وحفظه لنبيه وحبيبه، تحبط المؤامرة، ويرد الله كيد قريش في نحرها: ﴿وإِذْ يَمكرُ بِكَ الذين كَفَرُوا، لِيُثْبِتُوك أَو يقْتُلوكَ أو يُخْرِجوك... ويمكُرُون ويَمْكُرُ اللهُ، واللهُ خيرُ الماكرين...﴾ الأنفال / ٣٠. ويخرج رسول الله ﷺ من بين المحاصِرين... واضعاً عليه سِمة خزيهم وخذلانهم... فَيصِلُ مُهَاجَرَهُ الطيب، محوطاً بعناية الله... ودخل ﷺ المدينة فأنارتْ:

أهلاً وسهلاً ففي أَمْنٍ وفي سَعَةٍ
نِعْمَ النبيُّ، ونعم القَسْم والجار

وكان يوماً، أغرَّ مشهوداً، ذلك اليوم الأزهر الذي تشرفت فيه المدينة برسول الله ـ صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ـ وفرح أهل المدينة بمقدمه ـ ﷺ ـ ففي البخاري من حديث البراء ابن عازب، رضي الله عنه: «ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء، فَرَحَهم برسول الله ﷺ...»[١] وقد غمرتهم السعادة كباراً

(١) فتح الباري ٧/ ٢٦٠.

وصغاراً، وعمّتهم البهجة والحبور وغنّت جواريهم... ولعبت الحبشة بحرابها... سروراً وابتهاجاً...[1].

ورُوِيَ عن أنس رضي الله عنه قال: «... لمّا دخل رسول الله ﷺ المدينة، أضاء منها كل شيء». رواه ابن ماجه.

ورواه أبو داود؛ بلفظ: «لمّا قدِم رسول الله ﷺ، المدينة، لعبت الحبشة بحرابهم، فرحاً بقدومه ﷺ، وما رأيت يوماً، كان أحسنَ، ولا أضوأ، من يوم دخل ـ علينا فيه رسول الله ﷺ ـ، المدينةَ، أضاء منها كل شيء...».

ورواه ابن أبي خيثمة، عنه بلفظ: «شهدت يوم دخول رسول الله ﷺ، المدينةَ، فلم أرَ يوماً، أحسن منه ولا أضوأ»[2].

ـ ٢ ـ

سعد بن الربيع يستقبل رسول الله ﷺ

أَبَو أَنْ يَمَلُّونا، ولو أَنَّ أُمَّنا
تلاقي الذي يَلْقَون منا لملّتِ
هُمُ خلطونا بالنفوس، وأولجوا
إلى حُجُرات، أدفأت وأظلّتِ

تهيأت دور سعد بن الربيع، الرحبة الكريمة، وأخذت أهبتها لاستقبال إخوانه المهاجرين، فما يكاد يعلم بوصول فوج منهم

(١) وفاء الوفا ١/٢٦٢.
(٢) المرجع السابق ٢٦٣.

حتى يكون في مقدمة أهله وأبناء عمه، فيعزم عليهم للنزول عليه.

وتقع منازل سعد بن الربيع، في منطقة كانت تعرف بالسُنْح. بضم السين، وسكون النون[1] كما ضبطها السمهودي[2] نقلاً عن ياقوت، في معجم البلدان... وهي على بعد ميل من الحرم النبوي الشريف.

وقد كانت منازلهم عامرة، بالجنات المعروشات، وغير المعروشات، ديار خيِّرة فيحاء، تكتنفها الآطام المنيفة الشماء[3] وكان سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ في عزة وسعة ومنعة... ودياره ديار خير وبركة. ففيها تربة صُعيب، وهي تربة طيبة فيها ـ بإذن الله ـ برء وشفاء..[4].

(١) ومكانها اليوم بالتحديد خلف المنتزه المعروف بـ(حديقة الشباب) وتمتد شمالاً إلى قصر (السالمية) عند تلاقي خط قربان مع العوالي... (الخياري، تاريخ معالم المدينة ١٥٣).
ويحددها السمهودي عند المجاشونية أو المدشونية ـ عند كلامه على تربة صُعَيْب... وفاء الوفا ١/٦٨ و١٩٨، ٢/١٢٥٢ و١٢٩٨.

(٢) (قال ياقوت (٥/١٤٨) سُنْح: بضم أوله وسكون ثانيه، وآخره حاء مهملة إحدى محال المدينة. كان بها منزل أبي بكر الصديق، حين تزوج حبيبة بنت خارجة بن زيد بن زهير...) وفاء الوفا ١/١٩٨. وقد ضبطها البكري الأندلسي بـ السُنُح قال: «بضم أوله وثانيه، بعده حاء مهملة: منازل بني الحارث بن الخزرج بالمدينة بينها وبين منزل رسول الله ﷺ، ميل...» وانظر القاموس المحيط ١/٣٢٨. عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ٢/٧٦٠، والأول أصوب والله أعلم.

(٣) وفاء الوفا ١/١٩٨.

(٤) معجم ما استعجم ٢/٨٣٤، ووفاء الوفا ١/٦٨.

وصل النبي، ﷺ، المدينة، فنزل في علوها... في حي بني عمرو بن عوف بقباء[1]. فأقام فيهم، أربعة عشر ليلة فلما أراد، عليه الصلاة والسلام، أن يتحول إلى المدينة، اجتمعت بنو عمرو ابن عوف، فقالوا: يا رسول الله أَخَرَجْتَ مَلَالًا أم تريد داراً خيراً من دارنا؟. فقال: «إني أُمرت بقرية، تأكل القرى فخلّوها ـ أي ناقته ـ فإنها مأمورة».

وتعالمت بطون الأوس والخزرج بذلك، فَخَفَّتْ إليه ـ ﷺ ـ، تستقبله، وترجوه النزول عليها... وهو يقول لكل منهم.. خلّوها، فإنها مأمورة...

أمَّا سعد بن الربيع، فقد أَمَر بدياره العامرة، فهيئت كأحسن ما تكون. ثم لبس أشرف ثيابه وأفخر زينته... وأَمَر قومه ومواليه، فارْتَدوا أجمل زينتهم، ولبسوا سلاحهم، وانتضوا أسيافهم... فما برزت الناقة عليها المصطفى ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه رديفه[2] حتى هُرِع سعد ـ إليه ـ بأعيان قومه، فيهم خارجة ابن

---

(١) ذكر الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ في البداية والنهاية ٢٢٨/٣. أنَّ النبي ﷺ: «كان يتحدث بالنهار مع أصحابه، في منزل سعد بن الربيع. رضي الله (عنهما) إلى أنه ارتحل إلى دار بني النجار...» قلت: وهذا إن لم يكن وَهْمُ ناسخٍ فهو سبق قلم من الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله... فمعظم المصادر تذكر نزول النبي ﷺ على عمرو بن عوف، وسعد ابن خيثمة ـ وكانت تسمى دار العزّاب ـ وسعد صحابي وأبوه خيثمة صحابي فلذلك قال الحافظ ابن كثير: رضي الله (عنهما)... على حين يكاد يكون من المقطوع فيه أن الربيعَ أبا سعد ليس بصحابي. والله أعلم. وانظر فتح الباري ٧/ ٢٦٠.

(٢) فتح الباري ٢٩٥/٧، وانظر السيرة النبوية، والبداية والنهاية ووفاء الوفا.

زيد، وعبد الله بن رواحة، وبشير بن سعد وخبيب بن إساف. . . وغيرهم من علية القوم رضي الله عنهم. . . فبادر سعد رضي الله عنه ناقة رسول الله ﷺ. فأخذ بزمامها، فقال: «يا رسول الله هَلُمَّ إلينا، إلى العدد، والعدة، والمنعة. . . هَلُمَّ إلى العزة، والثروة والحلقة. . . هلم ـ يا رسول الله ـ إلى القوة والجَلَد. يا رسول الله لا تجاوزنا. . . ويهم سعد بجذب زمام الناقة. . .

ويرى النبي ﷺ، إخلاص اللهجة. . . وحرارة الشوق، وروعة الإيثار، وصدق الاستقبال. . . في وجه سعد ابن الربيع ـ كما رآه من إخوانه ـ قبلُ ـ فيفتَرّ ثغره الشريف ﷺ عن ابتسامة الرضا والامتنان، مفعمة بالمحبة والقبول. . . ثم يتوجه إلى سعد ـ ومِنْ حوْلِه قومه ـ فيدعو لهم ـ ﷺ ـ بالخير. . . واليمن. . . والبركة. . . قائلاً بتودد: «بارك الله عليكم ـ خلّوا سبيلها، فإنها مأمورة ـ بارك الله فيكم. . .»[1].

ويستمر الركب الطيب الميمون. . . متجهاً شمالاً، ليحطّ الرحل المبارك ـ بإذن الله ـ في أطهر بقعة وتختلط في عيني سعد ابن الربيع ـ رضي الله عنه ـ دموعُ الفرح بدموع الحزن؛ فرحاً بالقدوم الكريم الميمون وحزناً لأن النبي ﷺ، جاوز ديار سعد وقومه. . . ولكن الحبيبَ لم يعد بعيداً عن العيون ـ بعد اليوم ـ، وإنه الآن قاب قوسين ـ منهم ـ أو أدنى، وقد آن للأذن أن تستمتع بحلاوة الحديث ورائقه، وآن للقلب أن يهنأ بسويدائه. . .

---

(١) السيرة النبوية ٢/٥٢١، الطبقات الكبرى ١/٢٣٧، والبداية والنهاية ٣/١٩٦، وفاء الوفا ١/٢٥٧ ـ ٢٥٩.

وما إن توارى الموكب المبارك عن الأنظار، حتى أمر سعد ابن الربيع، بقُصَع الطعام أن تهيأ... ثم لحق سعد بالموكب المحبوب يحف به... ولا يكاد يحوّل بصره عن الحبيب... فأشبع ناظريه... ورَوى قلبه... حتى نزل رسول الله، فعاد سعد...

وما كاد النبي - ﷺ - يطمئن به منزله بدار أبي أيوب الأنصاري - رضي الله عنه - حتى كانت جفنات الثريد مكللة بالعُراق، يدخل بها سعد بن الربيع، ومواليه على رسول الله ﷺ... كبقية إخوانه الأنصار رضي الله عنهم ويدعو رسول الله أصحابه ومن حضر وغدا ذلك لهم عادة؛ أن يتناوبوا بينهم، ويتسابقوا، إليه إلى أنْ تحوّل رسول الله ﷺ، من بيت أبي أيوب[1] رضي الله عنه.

ومنذ حلّ الحبيب بين ظهرانيهم في رحاب المدينة المشرفة المنورة... غدا سعد بن الربيع، رضي الله عنه، ألزم للنبي، - عليه الصلاة والسلام - من ظله... فلا يكاد يبرح مجلسه، ولم يفارقه، في مقام أو سفر، وفي سلم أو حرب...

وعرف الرسول - ﷺ - لسعد، إخلاصه وصدقه وفضله، فأدنى مجلسه وأعلى منزلته، ورفع مكانته؛ يقرّبه منه إن حضر، ويهش في وجهه مبتسماً، ويتفقده إنْ غاب... فكان - ﷺ - يكثر زيارته لديار سعد...، وكيف لا وسعد - مع الأيام - مثالٌ الجندي،

---

(١) في وفاء الوفا ١/٢٦٦ «وما كانت تخطىء النبيَ ﷺ جفنةُ سعد بن عبادة، وجفنة أسعد بن زرارة كل ليلة» رضي الله عنهم.

الكيّس الفطن، اليقظ الذي تَشرَّفَ بحمل راية هذه الدعوة المباركة.

وكان النبي عليه السلام يطيل لبثه فيهم، ويقيل عندهم، ويعود مريضهم[1]، ويصلي في مسجدهم؛ كما روى ابن شبة عن هشام بن عروة، أن النبي ﷺ، صلى في مسجد بني الحارث ابن الخزرج بالسنح[2].

وقد شهدت هذه الديار، الطيبة العامرة ـ ديار سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه، كثيراً من المناسبات العظيمة...

فهي أولاً موئل المهاجرين، نزل فيهم عبد الرحمٰن بن عوف في رجال من المهاجرين[2]. كما نزل فيهم طلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين[3]!... كذلك. وصهيب بن سنان[3].

ثم آوى إليها أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، وأصهر إليهم فتزوج: حبيبة بنت خارجة بن زيد بن أبي زهير... أخت سعد ابن الربيع لأمه... ـ كما مرّ آنفاً[4] ـ وأقام بينهم[5].

كما شهدت تلك الديار المباركة، أَيْمَنَ زواجٍ... إنَّه زواج النبي الكريم ـ ﷺ ـ من عائشة أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ.

---

(١) معجم ما استعجم ٣/٨٣٤.

(٢) البداية والنهاية ٢/١٧٢، وفتح الباري ٢/٢٦١، باب مقدم النبي ﷺ، وأصحابه المدينة. وفاء الوفا ٣/٨٧١.

(٣) البداية والنهاية ٣/١٧١، والروض الأنف ٢/٢٢١.

(٤) انظر ص (٦٦) من هذا الكتاب.

(٥) فتح الباري ٧/٢٢٣، حديث رقم ٣٨٩٤، ووفاء الوفا ١/١٩٨، السيرة النبوية ٢/٥١٩، ومعجم ما استعجم ٣/٧٦٠.

أورد الإمام البخاري رحمه الله بسنده عن عائشة؛ رضي الله عنها: «أنَّ النبي - ﷺ - قال لها: «أُريتك في المنام، مرتين، أرى أنكِ في سرقة، من حرير». ويقول: «هذه امرأتـكَ، فأكشف، فإذا هي أنتِ، فأقول: إنْ يكنْ هذا من عند الله، يُمْضِه»[1].

فهذا الزواج الطيب، المبارك، الذي قدره الله وأمضاه كان في ديار سعد، العامرة، رضي الله عنه.

روى البخاري - رحمه الله - قال: حدثني فـروة بن أبي المغراء، حدثنا: علي بن مسهر، عن هشام عن أبيه، عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «تزوجني النبي ﷺ، وأنا بنت ست سنين، فقدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث بن الخزرج فوعكت فتمزق شعري، فوفى جميمة، فأتتني أمّي - أم رومان - وإني لفي أرجوحة - ومعي صواحب لي - فصرختْ بي، فأتيتها، لا أدري، ما تريد بي، فأخذتْ بي، حتى أوقفتني على باب الدار، وإني لأنهج، حتى سكن بعض نَفَسي، ثم أخذتْ شيئاً من ماء فمسحت به وجهي، ورأسي، ثم أدخلتني الدار، فإذا نسوة من الأنصار، في البيت، فقلن: على الخير والبركة وعلى خير طائر، فأسلمتني إليهن، فأصلَحن من شأني، فلم يَرعني إلا رسـول الله ﷺ، ضحى، فأسلمتني، وأنـا يومئـذ بنت تسع سنين...»[2].

---

(١) فتح الباري ٧/٢٢٣، رقم الحديث ٣٨٩٥.
(٢) فتح الباري ٧/٢٢٤.

وكما عند الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ قالت عائشة رضي الله عنها، قدمنا المدينة، فنزلنا في بني الحارث. . . .[1] وساق الحديث فديار سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ تزهو ـ إذن ـ بتلك المناسبات الطيبة المباركة. . . ومثلها كثير. . .

فقد شهدت تلك الديار الطيبة في جملة ما شهدت ولادة أول مولود من المهاجرين، بعد الهجرة؛ شهدت ولادة الصحابي الجليل؛ عبد الله بن الزبير، رضي الله عنهما. . . فَعَمَّتْ البهجة، والفرحة قلوب المسلمين جميعاً، والمهاجرين خاصة. كما عمّت البهجة والفرحة ديار سعد بن الربيع. . . وما إنْ علم الرسول ﷺ، بذلك، حتى قام متوجهاً إلى السنح مشياً على قدميه الشريفتين[2] يبارك المولود الأول ـ للمهاجرين ـ بعد الهجرة، في تلك الديار المباركة[2].

كما كانت هذه الديار الطيبة المباركة. . . بيت أول خليفة للمسلمين، وفيها بيت مال المسلمين. . . في أوائل خلافة الصديق. . . حتى تحوّل إلى المدينة فحوّل معه بيت المال[3].

---

(١) البداية والنهاية ٣/ ٢٢٩.

(٢) وبينها وبين منزل رسول الله ﷺ ميل. معجم ما استعجم ٣/ ٧٦٠. وقد أوردت بعض الروايات، أن ولادة ابن الزبير كانت في قباء، وأنا إلى الرواية الأولى أمْيَل، ذلك أن أبا بكر وآله ـ رضي الله عنهم ـ كانوا قد نزلوا ـ على قوم سعد بن الربيع ـ بالسنح وأسماء بنت أبي بكر، أم عبد الله، مع أبيها والله أعلم. . . وقد ناقش الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ هذه المسألة في الإصابة ٢/ ٣٠٩. وانظر البداية والنهاية ٣/ ٢٢٩.

(٣) روى ابن سعد ـ في طبقاته ـ بسنده. . . «أن أبا بكر الصديق كان له بيت مال بالسنح، لا يحرسه أحد. فقيل له: يا خليفة رسول الله ـ ﷺ ـ ألا =

ولعل أروع ما ورد في تلك الديار المباركة ـ ديار سعد. . . ـ ما روى قاسم بن ثابت، من طريق محمد بن فضالة، عن إبراهيم ابن الجهم، أن رسول الله ﷺ، أتى بني الحارث بن الخزرج (بعض قوم سعد بن الربيع ـ رضي الله عنهم ـ) فإذا هم رَوْبَى[1] فقال:

ـ «ما لكم يا بني الحارث»؟ قالوا:

ـ أصابتنا ـ يا رسول الله ـ هذه الحمى». قال:

ـ« فأين أنتم عن صُعَيب»؟ قالوا:

ـ «يا رسول الله ما نصنع به»؟. قال:

ـ «تأخذون من ترابه، فتجعلونه في ماء، ثم يتفل عليه أحدكم، ويقول: بسم الله، تراب أرضنا، بِرِيق بعضنا، شفاء لمريضنا، بإذن ربنا، ففعلوا، فتركتهم الحمى».

قال ابن النجار عقبه: «قال أبو القاسم: طاهر بن يحيى العلوي: صعيب: وادي بطحان دون الماجشونية»[2].

= تجعل على بيت المال من يحرسه؟ فقال: لا يُخاف عليه: قلت لِمَ؟ قال: عليه قفل. قال وكان يعطي ما فيه، حتى لا يبقى فيه شيء. فلما تحول أبو بكر إلى المدينة. ـ (بعد توليه الخلافة) ـ حوّله. فجعل بيت المال في الدار التي كان فيها. الطبقات ٣/٢١٢.

(١) روبى: جمع روبان، مثل عطشان وعطشى، . . . وهو الخائر النفس، الشديد الإعياء، المختلط العقل، من الحمى والوجع.

(٢) وفاء الوفا ١/٦٨، ومعجم ما استعجم ٣/٨٣٤، باختلاف يسير في بعض الألفاظ وفيه صعيب بالتصغير، موضع في ديار بني الحارث، وانظر ص ١٠٦ من هذا الكتاب.

ومع أن في كل دور الأنصار خير، وقد أحبَّهمُ المصطفى ﷺ، ودعا لهم، وتمنى أن يكون منهم... ولو سلك الناس شعباً، وسلكت الأنصار شعباً (لسلك ﷺ) شعب الأنصار[1] إلا أنه خصّ سعداً وقومه بالأفضلية... فقد روى البخاري ـ رحمه الله ـ قال: «حدثنا قتيبة، حدثنا ليث عن يحيى عن سعيد الأنصاري، أنه سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «ألا أُخبركم بخير دور الأنصار؟. قالوا: بلى، يا رسول الله. قال: (بنو النجار ثم الذين يلونهم؛ بنو عبد الأشهل، ثم الذين يلونهم **بنو الحارث بن الخزرج**، ثم الذين يلونهم، بنو ساعدة. ثم قال بيده؛ فقبض أصابعه، ثم بسطهن كالرامي بيده، ثم قال: «**وفي كل دور الأنصار خير**»»[2].

وفي حديث آخر... قال: «فَلَحِقْنا سعدَ بن عبادة، فقال: أبا أُسيد، ألم ترَ أن النبيَ ﷺ، خيَّر الأنصَار فجعلنا آخراً؟... فأدرك سعدُ النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، خُيِّرَ دورُ الأنصار فَجُعِلْنا آخراً؟ فقال:

ـ «أوَليس بحسبكم أنْ تكونوا من الخيار»[3].

ويحفظ النبي ﷺ، لسعدٍ منزلته ـ بعد استشهاده ـ كما حفظها

---

(١) السيرة النبوية ٤/١٣٥٢.

(٢) فتح الباري ٩/٤٣٩، رقم الحديث (٥٣٠٠).

(٣) ذكر الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ في الفتح ـ أن المقصود ببني الحارث بن الخزرج الأكبر أي ابن عمرو بن مالك بن الأوس والله أعلم. فتح الباري ٧/١١٦.
وأياً كان فحسب سعد وآله، أنهم من الأخيار... رضي الله عنهم.

في حياته... فلم يقطع زيارته لآل سعد، يتفقد أحوال آل بيته، فيواسي أهله، ويداعب بُنياته... ويدعو لهن[1].

- ٣ -

الإخـاء فـي الله

﴿إِنَّما المؤمنون إخوةٌ﴾ صدق الله العظيم.

لا يتم تمام أي كيان، إلا بتماسك أركـانه، فـالقوة في الجماعة، والرهبة للجماعة. و«يد الله مع الجماعة». وأخيراً فالنصر للجماعة.

وكيف تستوي العصبة المؤمنة، ويشتد عودها ويستغلظ دون مبادىء إيمانية ثابتة، وما هذه الأساسيات والروابط المتينة إلا أخوة العقيدة؛ الأخوة الصادقة في الله، وأخوة الإيمان، أحكم الروابط، وأغلاها، وأرفعها.... وأشرفها، وأقواها....

وأول القوة، قوة الوحدة، ولا وحدة بغير حبّ، وأقل الحبّ سلامة الصدر، وأعلاه مرتبة الإيثار (وهو ما تمثل بالصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين) ﴿ومن يُوقَ شُحَ نَفْسِه فَأُولَئِكَ هُمْ المفلحون﴾[2] «فالأخ المؤمن الصادق يرى إخوانه أَوْلى بنفسه من نفسه، فإنه إنْ لم يكن بهم لا يكون بغيرهم وإنهم إن لم يكـونوا بـه، يكـونـوا بغيـره... والمؤمن للمؤمن كـالبنيـان

---

(١) فتـح البـاري ١١٥/٧ رقم الحـديث (٣٧٩١). وانـظر البـدايـة والنهاية ٢٠١/٣، ووفاء الوفا ٢١٤/١. وانظر ص (٦٩) من هذا الكتاب.

(٢) سورة الحشر الآية: ٩.

المرصوص... يشدُّ بعضُه بعضاً»[1] ﴿والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعضهم﴾[2].

ولذلك سارع الرسول القائد، ﷺ، لإرساء هذا الصرح الإيماني العظيم بتوثيق لَبِناته الضخمة الأولى، بالأخوة الإسلامية، وبالتآخي بالله، فهي الخطوة الوحيدة، لبناء الجماعة المسلمة، وإحكام قوتها، ثم انتصارها بعدُ.

والأُخوة في الإسلام باب عظيم، في حياة المسلم. ولقد فهم أصحاب رسول الله ﷺ، معنى الأخوة في الله، حق الفهم، وطبّقوها أروعَ تطبيق... حتى غدا كلٌّ واحد فيهم علماً فيها، ومثلاً يُقْتَفى، في المودة والإيثار...

وإذا كانت هذه الخلة الكريمة الحميدة متجسّدة في الأنصار، فإنَّ سعد بن الربيع الأنصاري - رضي الله عنه - الفارس المجلي، في هذا الميدان الشريف... فقد حاز قصب السبق... «وفي كل دور الأنصار خير...».

وكما عرف رسول الله، أهمية الأخوة في بناء الصف، فقد قدّر - ﷺ - تضحيات المهاجرين - أيضاً - في سبيل الله. ونصرة دينه... فقد تخلّوا عن كل شيء، من متاع الحياة، من مال وأهل... ووطن... وعزّ وجاه... فهجروه، وهاجروا إلى الله ورسوله... واستقلوا ذلك في جنب الله.

---

(١) رسالة التعاليم بتصرف يسير.

(٢) سورة التوبة الآية: ٧١.

ووصلوا دار هجرتهم، وليس لديهم ما يمسك الرمق. . . فقال رسول الله ﷺ، للأنصار:

ـ «إنَّ إخوانكم، قد تركوا الأموال والأولاد، وخرجوا إليكم. . .» فقالوا: أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله ﷺ، «أوَ غير ذلك»؟، قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم، وتقاسمونهم الثمر»، قالوا: نعم. . . .»[1].

ووصل المهاجرون المدينة، ثم ما هي إلا أنْ ثارت في صدورهم نوازع الحنين، إلى مكة، موطنهم الأول. . . وتغيرت بهم الأنواء، فوعك بعضهم، حتى دعا لهم النبي، ﷺ. بالشفاء، وبتحبيب المدينة إليهم.

وقد رُوي عن أمِّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، قالت: «قَدِمْنا المدينة، وهي أوبأ أرض الله، وكان بطحان يجري نَجْلًا ـ يعني ماءً آجناً ـ . . .»[2]. فأصاب بعض الصحابة، بلاء وسقم، وصرف الله ذلك عن نبيِّه. . .

---

(١) البداية والنهاية ٣/٢٢٧.

(٢) بطحان: وادٍ كبير من أودية المدينة المنورة، ولا يزال معروفاً، بهذا الاسم إلى اليوم. انظر وفاء الوفا ١ ، البداية والنهاية ٣/٢٢٠. وكانت المدينة (يثرب قبل الإسلام) معروفة بوبائها، وحمّاها. . . فلمّا أصابت الحمى بعضَ الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ غداة هجرتهم إليها ـ دعا رسول الله ﷺ، للمدينة وأهلها، بالخير واليمن والبركة والعافية وأن تُنْقَل حمّاها إلى الجحفة. . . كما ورد في الحديث الشريف. . .

وقد روى البخاري ـ رحمه الله ـ بسنده ـ عن النبي ﷺ قال: «رأيت كأن =

واشتد بهم ـ وهذه حالهم ـ الشوق إلى مكة... فكان بلال إذا أدركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة
بوادٍ وحولي إذخر وجليل
وهل أرِدَنْ يوماً مياهَ مجنة
وهل يَبـدُوَنْ لي شامةٌ وطفيل

فلما رأى النبي ﷺ، ما حلّ بالمهاجرين؛ من ألم الاغتراب، وضيق ذات اليد ـ لمّا فروا إلى الله بدينهم ـ فضلاً عما قدَّمنا من وجوب التلاحم الإيماني ورصِّ الصفوف، وتوحيد القلوب... شرع لهم ـ مواساةً وارتفاقاً ـ المؤاخاةَ بالله بينهم وبين المسلمين الأنصار، فغدوا إخوة، متحابين، يواسي غنيهم فقيرهم ﴿إِنَّما المؤمنونَ إخوةٌ...﴾ فكان أنْ آخى ـ ﷺ ـ بين المهاجرين والأنصار، بأخوة الدين «على الحق والدين والمواساة، ويتوارثون بعد الممات، دون ذوي الأرحام، حتى قَويَ المسلمون، وزالت وحشة المهاجرين فنزل قوله تعالى: ﴿وأُولُو الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ في كِتَابِ اللهِ، إنَّ اللهَ بكلِّ شيءٍ عليمٌ﴾ فنسخت

= امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى قامت بمهيعة ـ وهي الجحفة ـ فأوّلْتها أنَّ وباء المدينة نقل إلى مهيعة، وهي الجحفة».

وقد كان مشركو مكة يَعرفون الوباء بالمدينة فلذلك قالوا: يوم عمرة القضاء... «إنه يقدم عليكم وفدٌ قد وهنهم حمى (يثرب)!، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ أن يرملوا، وأن يمشوا بين الركنين...» البداية والنهاية ٣/٢٢٢ وكان هذا منه ـ ﷺ ـ ليريَ مشركي العرب وقريشاً ـ خاصةً ـ قوة المسلمين وعافيتهم.

هذه الآية الكريمة ما كان قبلها من التوارث فيما بينهم ـ قبلُ ـ[1].

وقد كانت المؤاخاة بعد قدوم النبي ﷺ، المدينةَ بخمسة أشهر، على أرجح أقوال أهل العلم[2]. وقد كان التآخي في رحاب دارة أنس بن مالك رضي الله عنه، وبعضهم قال: بل بالمسجد... وقال ابن هشام صاحب السيرة فيما رواه عن ابن إسحاق: «وآخى رسول الله ﷺ، بين أصحابه، من المهاجرين والأنصار» فقال فيما بلغنا ـ ونعوذ بالله ـ، أن نقول عليه، ما لم يقل: «تآخوا في الله، أخوين، أخوين...»[3].

فكان ـ فيما قضى رسول الله ﷺ ـ سعد بن الربيع الخزرجي (الأنصاري) وعبد الرحمٰن بن عوف الزهري القرشي (المهاجر)، أخوين[4].

---

(١) الطبقات الكبرى ٢/٢٣٨. وذكر ابن حجر رحمه الله ـ في الفتح ـ «روى البخاري ـ رحمه الله ـ بسنده عن ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان المهاجرون لما قدموا على النبي ﷺ ـ المدينة ـ، وَرِثَ المهاجرُ الأنصاريَ دون ذوي رحمه، للأخوة، التي آخى النبي ﷺ، بينهم. فلما نزلت ﴿ولكل جعلنا مواليَ...﴾ نسخت. ثم قال: ﴿والذين عاقدت أيمانكم﴾ إلا النصر، والرفادة، والنصيحة، وقد ذهب الميراث، ويوصى له». فتح الباري ٤/٤٧٢.

(٢) وفاء الوفا ١/٢٦٧.

(٣) السيرة النبوية ٢/٥٣١، وانظر أسماء المتآخين جميعاً في كتاب المحبّر، لابن حبيب ٧١ وما بعدها.

(٤) فتح الباري، حديث رقم ٢٠٤٩ وأطرافه: ٢٢٩٢، ٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٥٥، ٥١٦٧، ٦٠٨٢، ٦٣٨٦. وانظر أول كتاب البيوع من التجريد الصريح ١/١٢٨.

وما أن سمع سعد بن الربيع الأنصاري من فم رسول الله ﷺ: أن عبد الرحمٰن بن عوف هو أخوه في الله... حتى نهض إليه... هاشّاً، باشاً... يفتر ثغره عن ابتسامة أعلنها الحب العميق، والإخاء الصادق، فما هو إلا أن اعتنقه، وقبّله.

وما أنْ تصافح الأَخَوَانِ الكريمان، رضي الله عنهما، حتى جرى حديث المحبة، الودود المخلص بينهما... وقد بدآه بالتحية والترحيب ثم استأذنا رسول الله ﷺ...

انطلق سعد بأخيه عبد الرحمٰن... ثم راح يمر به متخاصرين عبر جنات، من نخيل وأعناب، وشتى الزروع، وصنوف الورود، وشكول الثمار... يتخللان مسارب المياه الصافية العذبة الرقراقة... تسقي الزرع والأشجار... ينفحهما العبير، ويجعل سجع القمري، وهديل الحمام لحديثهما لحناً رائعاً... وهما يتفيآن ظلال النخيل تتدلى منها الأعذاق... تحمل الزهو والبلح... وكأنها القناديل... الزاهية... يرجّعان الكلام وقد تشعّب بهما الحديث... فَمِنْ عُمُر الإسلامِ في مكة وما لقيه المسلمون فيها... وما فعله المشركون بهم... إلى بهجة الأنصار، وفرحتهم بالقدوم الكريم، للرسول، ﷺ، وأصحابه المهاجرين... رضي الله عنهم... إلى مستقبل الإسلام الواعد في المدينة المنورة...

وراح عبد الرحمٰن يقصُّ على أخيه أطرافاً من صبر النبي ﷺ، وسعد مُصْغٍ إليه، في اهتمام بالغ... مستزيد له... يحثه إذا فتر...

ولا جَرَمَ فهذا الأخ المهاجر إلى الله عبد الرحمٰن، من قوم رسول الله ﷺ . . . وعشيرته، ومن المقربين إليه، ومن السابقين إلى دعوته . . . وأيضاً فهو أحد العشرة الكرام البررة الذين بشرهم رسول الله ﷺ، بالجنة، فلا غرو أنْ احتفى به سعد، والتصق به، واستزاده من حديث رسول الله ﷺ، وخبره . . .

ومن خلال تلك الحيوات العَبِقَةِ بأريج الإيمان . . .والمفغمةِ بشذى الجنان . . . انتهى سعد بأخيه عبد الرحمٰن إلى دور رحبة عامرة بالبهجة والحياة . . .، تنمُّ لرائيها أَنَّ صاحبها من ذوي اليسار . . . ثم دلف به فِناءً رحباً فسيحاً تحيط به البيوت والغرف، وتلبّث سعد قليلاً يُنَقِّل بصره بين البيوت، حتى استقر أمره على أحدها . . . فدخلاه.

كان هذا البيت من آثر البيوت إلى سعد بن الربيع وقد جعل فيه من فاخر المتكأ، ومرافق الراحة، ما يليق ببيت أثير لدى صاحبه الموسر . . .

أعاد سعد ـ عبارات الترحيب . . . ـ على أخيه عبد الرحمٰن ثم طرح بعض الوسائد يتكىء عليها . . . ثم استأذن أخاه هنيهة.

خرج سعد، فأمر غلمانه ومواليه بإعداد الطعام . . وأن يبالغوا في إكرام الأخ الضيف . . . وإلى أن يتم الانتهاء من ذلك، أمر سعد بأن يُطْرَفَ وضيفُه بما يتعللان به من زهو ورطب، وشراب بارد. ثم راحا يستأنفان حديثاً عن الإسلام في المدينة المنورة، وما يأملان من اشتداد ساعده، وقوته ليعم الخير، أحياء العرب قاطبة، بل الدنيا بأسرها . . .

وطُرق الباب فدخل الغلمان، بأصناف الطعـام وأطايبـه، فوضعت بين يدي الضيف الكريم، والأخ الحبيب وكان سعد يحبُّ أنْ يفضيَ إلى أخيه بذات صدره تعزية له عما فقده في مكة، من عَرَض ونشب. . . فلا يجد إلى ذلك سبيلاً. . . حتى أمكنه الحديث عن ذلك أثناء الطعام، فقال سعد بلهجة رقيقة صـادقة، ونبـرة تفيض بـالـود والحنـان ـ أيْ أُخيٍّ ـ: عبـدَ الرحمٰن. . . «لقد علمتِ الأنصار، أني من أكثرها مالاً. . . » وما هذا الذي مررنا به ورأيتَه آنفاً إلا بعض أموالي، وأنت أخي ولا مال لك. فأَقْسِمه قسمين، فأنزل لك عن أحدهما ـ عَلِمَ الله ـ طيبة به نفسي. . . فنظر عبدُ الرحمٰن إلى أخيه سعد؛ بإكبار وامتنان. . . ثم تبسّم، فطمع سعد برضى أخيه، فاستأنف بلهجة أعظم صدقاً، وحباً وإيماناً. فقال: وتانك عَمْرَةُ بنت حزم، وخُلاَدَةُ بنت أنس بن سنان زوجتاي. . . «فانظر أعجبهما إليك فَسَمّها لي، أُطَلِقْها، فإذا انقضتْ عدتها، وحلّت، فتزوجْها. . . »

فَوَنَى عبد الرحمٰن عن الطعام وأطرق حياءً وامتناناً، ثم رفع إلي أخيه عينين محبتين تفيضان من دمع الشكر والعرفان، فجزّاه خيراً، ودعا له بالخيـر والبركـة والزيـادة والنماء في المـال والأهل. . .

ثم قال له: ـ

ـ يا أخي. . . أليس عندكم من سوق، تبيعون فيه وتشترون؟ فقال سعد:

ـ بلى. . ولكن لِمَ؟ وما حاجتك إليه؟؟ وأنت. . . ـ يا أخي ـ

لا تعرف أحداً فيها. . .؟؟ وأنت حديث عهد بالمدينة وأهلها. . . فقال عبد الرحمٰن:

ـ أجل ـ هو ما تقول ـ ولكني أحبُّ أن أتّجِر. . . فقال سعد:

ـ ولكنّك ـ . . . ولكن. . . فقال عبد الرحمٰن:

ـ ما بك يا أخي؟؟ ولكن ماذا؟؟ فقال سعد:

ـ ولكن ليس لديك من المال شيء. . . أم تُراني قصّرتُ نحوك في شيء أو أسأت إليك. . . فقال عبد الرحمٰن:

ـ حاشا لله، يا أخي. . . فقال سعد:

ـ فما تبتغي منه. . . أولستَ أحدَنا في (بيتك هذا). . .؟ فقال عبد الرحمٰن:

ـ بارك الله فيك ـ يا أخي ـ ولكن إذا كان غدٌ فاغدو بي إلى السوق. . .

فلما كان من غده بكَّرَ سعد بأخيه عبد الرحمٰن إلى سوق بني قينقاع[1] ـ وهي أعظم أسواق المدينة ـ تحفل بشتى الصنوف

---

(١) كانت سوقاً عظيمةً في الجاهلية، عند جسر بطحان، يقوم في السنة مراراً، ويتفاخر الناس به، ويتناشدون الأشعار، وذكر ابن شبة خبراً في اجتماع حسان بن ثابت الأنصاري، رضي الله عنه، بنابغة بني ذبيان. . . في خبر طويل انظره في وفاء الوفا ١٢٣٨/٤، وانظر ديوان حسان ٣٦٠ ويقع هذا السوق بين المراكشية، والمشرفية الآن. . . (شعر الحرب بين الأوس والخزرج ٦٧). وقد ذكر هذه السوق الفيروزآبادي: فسَماها: (حباشة على وزن ثمامة سوق في تهامة القديمة، وسوق أخرى كانت لبني قينقاع: القاموس المحيط ٢٧٧/٢، وانظر وفاء الوفا ١٢٣٩/٤ وفي هذه السوق جمع رسول الله ﷺ يهود، عقب بدر ودعاهم إلى الإسلام وانظر الخبر =

والشكول... كما كانت منتدى لمقارضة الشعر، كشأن عكاظ في مكة ـ فما عاد عبد الرحمٰن ـ رضي الله عنهما إلا برزق كريم... وصدق الله: ﴿ومَنْ يُهاجِرْ في سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ في الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثيراً وَسَعَةً...﴾[1]»[2].

«ـ ٢٠٤٨: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله، حدثنا إبراهيم ابن سعد عن أبيه، عن جده، قال: قال عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه:

«لمّا قدمنا المدينة، آخى رسول الله ﷺ بيني وبين سعد ابن الربيع، فقال سعد بن الربيع: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانْظُرْ أيَّ زوجتيَّ هَوِيْتَ، نَزَلتُ لك عنها، فإذا حلَّت تزوجتَها..، قال: فقال له عبد الرحمٰن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: فغدا إليه عبد الرحمٰن فأتى بأَقِطٍ وسمنٍ. قال: ثم تابع الغُدوَّ. فما لبث أن جاء عبد الرحمٰن، وعليه أثر صفرة، فقال رسول الله ﷺ: «تزوجتَ»؟، قال: نعم. قال «ومَنْ»؟، قال امرأة من الأنصار قال: «كم سقتَ»؟ قال: زنة نواة من ذهب ـ أو نواة من ذهب ـ فقال له النبي ﷺ: «أَوْلِمْ ولو بشاة»[3].

= بطوله في السيرة النبوية ٣/٨٠٨، وكذا البداية والنهاية ٤/٤، وفي هذه السوق آذى يهود المرأة المسلمة فكان ذلك سبب إجلائهم... وكانت أيضاً تعرف بسوق الجسر... وفاء الوفا ٤/١٠٧٢.

(١) سورة النساء الآية: ١٠٠

(٢) الروض الأنف ٢/٢٤٢.

(٣) فتح الباري ٤/٢٨٨. والأَقِط: اللبن المجفف.

وساق الإمام البخاري رحمه الله حديثاً آخر يؤكد المعاني السابقة.

«٢٠٤٩: حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا زهير، حدثنا حميد عن أنس رضي الله عنه قال: «قَدِمَ عبد الرحمٰن بن عوف، المدينةَ، فآخى النبي ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصاري، وكان سعد ذا غنى، فقال لعبد الرحمٰن: أُقاسمك مالي نصفين، وأزوجك... قال: بارك الله لك في مالك وأهلك، دلوني على السوق...، فما رجع حتى استفضل أَقِطاً وسمناً، فأتى به أهل منزله، فمكثنا يسيراً أو ما شاء الله. فجاء وعليه وضَرٌ من صُفْرة. فقال له النبي، ﷺ: «مَهْيَمْ»؟. قال: تزوجتُ يا رسول الله، امرأةً من الأنصار. قال: «ما سقتَ إليها»؟ قال: ـ نواةً من ذهب أو وزن نواةٍ من ذهب ـ قال: «أَوْلِمْ، ولو بشاة»[1].

وثمة حديث آخر. في صحيح الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ:

«٣٧٨٠ ـ حدثنا إسماعيل بن عبد الله، قال: حدثني إبراهيم ابن سعد، عن أبيه، عن جده، قال: «لمّا قدموا ـ المدينة ـ آخى رسول الله ﷺ، بين عبد الرحمٰن بن عوف وسعد بن الربيع. قال لعبد الرحمٰن: إني أكثر الأنصار مالاً فأَقْسِمُ مالي نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فَسَمِّها لي، أُطَلِّقْها، فإذا انقضت

---

(١) مَهْيَمْ: كلمة يمانية، بمعنى ما هذا، للتعجب تعني: «ما شأنُك أو ما هذا، وهي كلمة استفهام مبنية على السكون، ولأهلَ اللغة فيها قولان؛ بسيطة ومركبة، وقال ابن مالك: هي اسم فعل أمر، بمعنى (أَخْبِرْ)... وانظر (فتح الباري ٩/٢٣٤).

عدتها، فتزوجْها. قال: بارك الله لك في أهلك ومالك. أين سوقكم؟ فدلّوه على السوق؟ فما انقلب، إلا ومعه فضل من أَقِطٍ وسمنٍ ثم تابع الغُدوَّ. ثم جاء يوماً، وبه أثرٌ من صُفْرة، فقال النبي، ﷺ: «مَهْيَمْ»؟. قال: تزوجتُ قال: «كم سقتَ إليها»؟. قال: نواةً من ذهب ـ أو وزن نواة من ذهب ـ شك إبراهيم».

«٣٧٨١ ـ حدثنا قتيبة، حدثنا، إسماعيل بن جعفر، عن حميد، عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أنه قال: «قَدِمَ علينا عبد الرحمٰن بن عوف، وآخى النبي ـ ﷺ ـ، بينه وبين سعد بن الربيع ـ وكان كثيرَ المال ـ فقال سعد: قد علمتِ الأنصارُ، أَنيًّ من أكثرها مالاً، سأقسم مالي بيني وبينك شطرين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك، فأطلقها، حتى إذا حلَّتْ تزوجْتَها، فقال عبد الرحمٰن: بارك الله لك في أهلك. فلم يرجع يومئذ حتى أَفْضَلَ شيئاً من سمن وأقط، فلم يلبثْ إلا يسيراً حتى جاء رسولَ الله ﷺ، وعليه وضرٌ من صفرة. فقال له رسول الله ﷺ: «مَهْيَمْ»؟ قال: تزوجت امرأة من الأنصار. قال: «ما سقت فيها»؟ قال: وزن نواة من ذهب ـ أو نواة من ذهب ـ فقال: «أَوْلِمْ ولو بشاة»[1]. ومن خلال تلك الأحاديث الشريفة الصحيحة كلها... تتجلى ـ لنا ـ بعض مآثرهما رضي الله عنهما...

(١) فتح الباري ١١٢/٧ ـ ١١٣، باب إخاء النبي ﷺ، بين المهاجرين والأنصار. وثمة حديث مشابه برقم ٥١٦٧. ولقد تواترت هذه الأحاديث كثرة، وكلها من صحيح الإمام البخاري رحمه الله تعالى، وقد توزعَتْها الأبواب التالية؛ البيوع، وفضائل الأنصار، وإخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، والنكاح، وباب الوليمة في النكاح. وبدأ بحديث رقم (٢٠٤٩) =

فقد أضاءت مناقب الصحابي الجواد، سعد بن الربيع الأنصاري رضي الله عنه، في إيثاره على نفسه، بما ذكر لأخيه، الصحابي العفيف عبد الرحمٰن «في تنزهه عن شيء يستلزم الحياء والمروءة اجتنابه، ولو كان محتاجاً إليه، وفيه استحباب المؤاخاة وحسن الإيثار من الغني للفقير، حتى بإحدى زوجتيه، واستحباب ردّ مثل ذلك، فلو تحقق أن لم يتكلف فيه جاز. . . (ولقد كان سعد بن الربيع صادقاً في عرضه، وكان عبد الرحمٰن صادقاً في عفافه ونزاهته. . .)[1].

وفيه أنه مَنْ ترك ذلك بقصدٍ صحيح عَوّضه الله خيراً منه[2] وفيه استحباب التكسب، وأنْ لا نقصَ على من يتعاطى من ذلك ما يليق بمروءة مثله، وكراهة قبول، ما يتوقع منه الذل، مِنْ هبة أو غيرها. وأنَّ العيش من عمل المرء، بتجارة أو حرفة أولى لنزاهة الأخلاق، من العيش بالهبة ونحوها. . .»[3].

ومن خلال تلك الأحاديث الصحيحة الشريفة. . . تتجلى لنا عظمة هذا الجيل القرآني الفريد. . .

تتجلى قمة الإيثار والصدق والتضحية من جانب. . . مع قمة

= وأطرافه في الأرقام التالية: ٢٢٩٣، ٣٧٨١، ٣٩٣٧، ٥٠٧٢، ٥١٤٨، ٥١٥٣، ٥١٥٥، ٥١٦٧، ٦٠٨٢، ٦٣٨٦ من فتح الباري.

(١) ليست من النص.

(٢) ولقد دعا رسول الله ﷺ لعبد الرحمٰن بالخير والبركة، كفاء تعففه وعلو همته وترفعه. . . فكان يقول: إني أظن لو رفعت حجراً لوجدت تحته ذهباً. . .

(٣) فتح الباري ٩/٢٣٥.

العفة والسمو، والإيمان من جانب... مع فهم عميق لمعاني الدنيا والدين، من الطرفين...

لقد فهم سعد بن الربيع رضي الله عنه هذه الحياة وتفاهتها... مع ما آتاه الله من ثراء عريض وعرف أنها ظل زائل، فلم يتشبّث بها بل امتهنها ـ في الحق ـ ووضعها في موضعها الصحيح... ولقد وفى لله ولرسوله بما عاهد عليه...

وكذاك ـ فهمها ـ عبد الرحمٰن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ حق الفهم، فلم يطمع بها ويتلقّفها... بل نأى عنها وأشاح... فقال لأخيه سعد ـ تجاه كل هذه العروض ـ بارك الله لك في مالك وأهلك... كما أثر عنه قوله: لم نسلم ونهاجر لأجل هذا...[1].

(١) في معرفة الصحابة، لأبي نعيم: لا حاجة لي في امرأتك ولا حائطك، ما لهذا هاجرت وأسلمت (مخطوط).

الفَصل الثالث

جهاده واستشهاده

- المبحث الأول: بلاؤه في بدر.
- المبحث الثاني: أُحد الملحمة الكبرى.
- المبحث الثالث: استشهاده.

رضي الله عنه



المبحث الأول

بدر وسعد بن الربيع
الجندي المجهول

سعد في نصرة الإسلام:

منذ مسّتْ كفُّ سعد بن الربيع، كفَّ رسول الله - ﷺ - مبايعاً له ليلة العقبة... وسعد - رضي الله عنه - لا يألو جهداً في خدمة الإسلام، ونصرة دعوته...

فقد أصبح الإسلام شغله - عن كل ما عداه، يضع كل طاقاته وإمكاناته في خدمته ودعوته - غير وانٍ، ولا مُدِل بل يحسب نفسه مقصراً،... غير مُلْتَفِتٍ إلى عَرَضٍ من مسرات الدنيا، وهوى النفس، فلم يكن يعنيه شيء إلا ثبوت الدعوة وسيرورتها، وانتشار الإسلام... ورضا الله ورسوله رأس كل أمر عنده.

ومنذ اليوم الأول للإعلان عن قيام الدولة الإسلامية الفتيّة الواعدة - عقب قدوم النبي الكريم ﷺ، المدينة المنورة - وضع سعد بن الربيع - رضي الله عنه - نفسه جندياً مخلصاً وأميناً لله ولرسوله ولدعوة الإسلام.

وبدأت أخبار السرايا وتجهيزاتها ـ التي يبثُّها الرسول ﷺ ـ والغزوات المتلاحقـة تترى على مرأى ومسمع النقيب البطل سعد بن الربيع، وكم تمنى هو وإخوانه الشوس من الأنصار، أن يكون لهم شرف المشاركة، مع إخوانهم المهاجرين في تلك السرايا والغزوات.

لقد كان فصول الغزاة ـ في سبيل الله من ـ المهاجرين ـ من المدينة المنورة إلى حيث يوجههم النبي عليه السلام ـ يَهيج في سعد شوقه إلى الجهاد فيودّعهم بالزفرات الحسرى ويستقبل رجوعهم ـ مظفرين ـ بالآهات الحرى، ولسان حاله يقول: «يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً.. وكان يـودّ أن يلمِّحَ للنبي ـ ﷺ ـ ليُجِيزَهُ في تلك البعوث من السرايا والغزوات... ولكن النبي الكريم، عليه صلوات الله وسلامه ـ ملتزم بما بايع عليه الأنصار، بألّا يرزأهم شيئاً خارج مدينتهم، فهو إنما بايعهم على نصرته، ومنعه في المدينة فأمّا خارجهـا فلا يُجَشِّمَهُم شيئاً...

بيد أنَّ رغبتهم في الجهاد ـ وهم أبناء الحروب كابراً عن كابر ـ بدت عارمة....

وكأنَ النبي ـ ﷺ ـ أراد بذلك أن يُعدَّهم فيدخَرهم ليوم بدر، وأحد وما بعدهما... فيلهب بذلك شوقهم، ويذكي اندفاعهم، للجهاد في سبيل الله...، فضلاً عن تعويض المهاجرين شيئاً مما سلبته منهم قريش ـ حتى إذا كانت المعركة الفاصلة «بدر الكبرى» زجّوا بأنفسهم مصرّحين بذات نفوسهم قائلين لنبيّهم:

«فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك... ما تخلّف منا رجل واحد...».

سعد في المعركة:

كما أجمعت الروايات ـ كلها ـ على كون سعد بن الربيع نقيباً على قومه مبايعاً... يوم العقبة... فكذلك أطبقت ـ جميعُها ـ على أنه بدري[1]، وأنه أبلى في بدر ما يليق بأمثاله من الشجعان الأبطال... لكنَّ الرواياتِ طوت ذكره.

حتى لا نكاد نلمح لسعد بن الربيع، في يوم بدر موقفاً مميزاً أكثر مما صنعه قومه الأنصار... ولعمري فهل هناك مطمع فوق ما صنعوا ـ رضي الله عنهم. بيد أنَّ ثمة موقف آخر لسعد في بدر...

ما إن علم سعد بن الربيع، أن النبي ـ ﷺ ـ أجاز خروج الأنصار، لأول مرة ـ في هذه الغزوة ـ ولم يكن غزا بأَحدٍ منهم قبل ذلك[2]... حتى كان سعد مع قومه الصناديد في طليعة القوم فعقد رسول الله ـ ﷺ ـ راية الخزرج للحباب بن المنذر، وجعل شعارهم: «يا بني عبد الله»، ورفع لواء الأوس لسعد ابن معاذ، وجعل شعارهم: «يا بني عبيد الله». بعد أن علم ـ ﷺ ـ صدق توجههم، لجهاد الكفار، واندفاعهم معه، فلما قال أشيروا

---

(١) طبقات ابن سعد: ٥٢٣/٣، والسيرة النبوية: ٧٣٢/٣، والمحبر: ٢٧٧، والبداية والنهاية: ٣١٩/٣، ومغازي الواقدي: ١٦٥/١، أسد الغابة: ٢٧٧/٢.

(٢) طبقات ابن سعد: ١٢/٢.

عليّ أيها القوم، وقال المهاجرون وأحسنوا يقدمهم أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهم ـ جميعاً[1]. . .

غير أن رسول الله ـ ﷺ ـ ما فتىء يقول: «أشيروا عليّ أيها القوم»، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس[2] فهم ثلاثة أرباع الجيش، والمهاجرون الربع[3]، رضي الله عنهم أجمعين. . . ـ حتى قالوا: يا رسول الله، قد «آمنا بك، وصدقناك، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك. . . فامْضِ بنا يا رسول الله، لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أَنْ تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ عند اللقاء، ولعلَّ الله يُريكَ منّا ما تقرُّ به عينك. . .، فَصِلْ حبل مَنْ شئت واقطع حبل من شئت، وسالم مَنْ شئت، وحارب من شئت، وأْمُرْ بما شئت. . وخذ مِنْ أموالنا ما شئت. . . وما أخذتَ

---

(١) البداية والنهاية: ٣/٢٦٣.

(٢) السيرة النبوية: ٢/٦٥٣، والبداية والنهاية: ٣/٢٦١.

(٣) كان عدد المهاجرين في بدر (٨٣) ثلاثة وثمانين رجلاً، والأنصار (٢٣١) مئتين وواحداً وثلاثين رجلاً، واحد وستون من الأوس وسبعون ومئة من الخزرج. السيرة النبوية: ٣/٧٤٦. وذكر ابن سعد في الطبقات بسنده قال: كان عدة أهل بدر ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً سبعون ومِئتان من الأنصار وبقيتهم من سائر الناس؛ الطبقات: ٢/٢٠. وروى الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ بسنده عن البراء رضي الله، قال: «. . . . . كان المهاجرون يوم بدر نيفاً على ستين، والأنصار نيفاً وأربعين ومئتين. . .»: السابق.

أحبُّ إلينا مما أبقيتَ... فَسِرْ على بركة الله...» فَسُرَّ لذلك رسول الله - ﷺ - وأشرق وجهه الكريم، وتنشّط وقال: «سيروا وأبشروا...» فما إنْ نشب القتال، ودارت كؤوس المنايا... واستبسل الشجعان... وعلت الهمهمة... فاختلطت بحمحمة الجياد... حتى تقحّم فارس - من أشجع الفرسان المشركين من بني مخزوم - يقصد عريش رسول الله - ﷺ - وهيهات فأَنى له ورسول الله - ﷺ قد عصمه ربه من الناس فالله معه... وحوله جبرائيل وميكائيل والصديق والفاروق بجواره.. وحوله أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب... وحوله سيد الشجعان وفارس الفرسان علي بن أبي طالب... وحوله عبيدة ابن الحارث بن عبد المطلب... وحوله عصبة الأنصار... يقدمهم نقيبهم سعد بن الربيع الأنصاري... وهؤلاء يحوطهم بطل الأبطال سيد البشر وإمام المرسلين محمد بن عبد الله ﷺ[1]...

قالوا: «فلمّا تزاحف الناس قال الأسود بن عبد الأسد المخزومي حين دنا من الحوض: أُعاهد الله لأَشربنّ من حوضهم، أو لأهدِمنّه، أو لأموتنَّ دونه... فَشَدَّ الأسود بن عبد الأسد حتى دنا من الحوض، فاستقبله حمزة بن عبد المطلب... فضربه فأطنَّ قدمه، فزحف الأسود حتى وقع في الحوض، فهدمه برجله الصحيحة، وشرب منه، وأَتبعه حمزة فضربه في الحوض فقتله... والمشركون ينظرون على

(١) يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كنا إذا اشتدّ البأس وحميَ الوطيس نلوذ برسول الله ﷺ...».

صفوفهم، وهم يَرَوْنَ أنهم ظاهرون...»[1]... لكن ابن عم الأسود ـ المقتول في الحوض ـ (رِفاعةَ بن أبي رِفاعة) فتى بني مخزوم، وفارسهم والمُقدّم في أبطالهم... ينظر ما فُعِل بابن عمه ورأى مصيره الذي آل إليه... فأقسم ليثأرنّ له أو ليموتنّ على ما مات عليه...

فما هو إلا أنه وكز بطن فرسه حتى انطلق يهوي به كالجنّ... من قوة ونشاط... يقضقض بأسنانه فتصرّ... فيُسمَعُ لها صريف... ولبطنه دوي كغلي المراجل... ... فذاكم الفارس الذي تَقَحّم بفرسه يبغي عريشِ رسول الله ـ ﷺ ـ ... مندفعاً ليثأرَ لابن عمه...

واندفع إلى الصفوف فتمكن من شقها... وقصد رسول الله ـ ﷺ ـ ... وقد غرته نفسه فانخدع... وما درى أن الأنصار قد أحاطت برسول الله ﷺ... وأن المطايا تحمل المنايا... ثم تقدم وهو يرغي ويزبد ويتوعد ويتهدد... فما هو إلا أن برز له سعد بن الربيع، رضي الله تعالى عنه... فصاح به: أَقْصِرْ ويلك، وارقَ على ظلعك واربع على نفسك... وإنك لمقتول... إن شاء الله... ثم التقى البطلان... فاختلفا ضربات ثم انقض سعد على رفاعة المخزومي... فعاجله ضربة قدّته[2] وعجّل به إلى جهنم فألحق بابن عمه وبئس المصير وهو يقول له: أتظن أنك تصل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأنا حيٌّ...

---

(١) مغازي الواقدي: ١/٦٨.

(٢) مغازي الواقدي: ١/١٥٠.

لقد صدق سعد بن الربيع ربه في بيعته... فكم تمنى أن يفوز بالشهادة... في ذلك اليوم الأغر... ولكنَّ الله ادخره لنصرة نبيه في يوم أشد ما يكون المسلمون بحاجة إليه... وتفيض كتب السير، ودواوين الشعراء بتخليد بطولات قوم سعد ابن الربيع رضي الله عنهم في ذلك اليوم المجيد...[1].

(١) انظر السيرة النبوية: ٢/ ٧٧٤، وما بعدها...

المبحث الثاني

أُحُدٌ: يَوْمُ الملحمة...

سعد بن الربيع: مستشار رسول الله ﷺ

سعد بن الربيع: بطل أُحد.

ملحمة أحد:

﴿وإذْ غدَوْتَ مِنْ أهلِكَ تُبَوِّىءُ المؤمنينَ مَقَاعِدَ لِلقِتَالِ واللهُ سميعٌ عَليمْ﴾. آل عمران: ١٢٠

رجعت قريش عقب بدر - إلى مكة - تجر أذيال الخيبة والمرارة.. بعد أن منيت بهزيمة، ليست لها على بال... فقد غادرت... فوق جنبات بدر سبعين من سراتها وأعيانها وأبطالها... تسفي عليهم الرمال المحرقة فتلوحهم الشمس... حتى أَمَرَ بهم رسول الله ﷺ فَأُلْقُوا كَبَاكِبَ في القليب... وغادروا سبعين آخر... قد جُمعت أيديهم إلى أعناقهم في رحالهم يجرون قيود الأسر... والذل... ذَلِكَ ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللهَ ورسولَه، فإنَّ اللهَ شديدُ العقابِ﴾. ﴿... ذلكم وأَنْ اللهَ مُوهِنْ كيد الكافرين...﴾. الأنفال: ١٨.

عادوا ـ وحالتهم تلك ـ فأبرقوا وأرعدوا، وأرغَوا وأزبدوا. . . فجمّعوا جموعهم، وأنفقوا أموالهم، وأقسموا جهد أيمانهم. . . لينتقمنَّ لأنفسهم وليثأرُونَّ لقتلاهم، وأذكى اليهود فيهم نيران الحقد وألهبوهم لطلب الثأر. . . فألبّوا مَنْ قِبَلَهم، واستنفروهم لقتال محمد ـ ﷺ ـ وصحبه بالمدينة. . . وأوعبوا لحربهم. . . وكتب العباس بن عبد المطلب ـ عم رسول الله ـ، إلى النبي ﷺ بخبر قريش، وما هي من الرأي والعزيمة. . .

فقالوا: لما أجمعت قريش «المسير، كتب العباس بن عبد المطلب كتاباً وختمه، واستأجر رجلاً من بني غفار، واشترط عليه أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يخبره أنَّ قريشاً قد أجمعت المسير إليكَ، فما كنت صانعاً إذا حلّوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك، وهم ثلاثةُ آلاف، وقادوا مئتي فرس، وفيهم سبعمئة دارع، وثلاثة آلاف بعير، وأوعبوا من السلاح.

فقدِم الغفاريُّ فلم يجد رسول الله ـ ﷺ ـ بالمدينة، ووجده بقباء، فخرج حتى يجدَ رسول الله ـ ﷺ ـ على باب مسجد قباء، يركب حماره، فدفع إليه الكتاب، فقرأه عليه أُبَيُّ بن كعب، واستكتم أُبيًّا ما فيه ثم جاء فدخل ﷺ منزل سعد بن الربيع فقال:

ـ «في البيت أحدٌ؟».

فقال سعد:

ـ لا فَتَكَلَّمْ [يا رسولَ الله] بحاجتك!

فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب، وجعل سعدٌ يقول:

ـ «يا رسول الله، إني لأرجو أن يكون في ذلك خيرٌ».

ـ وقد أرجفت يهودُ المدينة والمنافقون، وقالوا: ما جاء محمداً شيءٌ يحبه ـ.

[و] انصرف رسول الله ﷺ، إلى المدينة واستكتم سعداً الخبر. فلمّا خرج رسول الله ـ ﷺ ـ خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه فقالت:

ـ ما قال لك رسول الله [ﷺ]؟. فقال:
ـ ما لكِ ولذلك، لا أمَّ لكِ؟. قالتْ:
ـ كنت أسمْع عليكَ، وأخبرتْ سعداً الخبر، فاسترجع سعدٌ وقال:

ـ لا أراك تستمعين علينا، وأنا أقول لرسول الله ـ ﷺ ـ : «تكلَّمْ بحاجتِكَ». ثم أخذ يجمع لَبَّتها، ثم خرج يعدو بها، حتى أدرك رسول الله ـ ﷺ ـ بالجسر[1]، وقد بلَحَتْ فقال: ـ يا رسول الله «إنَّ امرأتي سألتني عما قُلْتَ فكتمتها، فقالت: قد سمعت قولَ رسول الله! فجاءَت بالحديث كلِّه، فخشيتُ يا رسول الله، أن يظهرَ من ذلك شيء، فتظنّ أني أفشيتُ سِرَّكَ. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ

ـ «خَلِّ سبيلها»[2].

---

(١) موضع بين الصافية والمراكشية. وموضعه ـ اليوم ـ بين سوق اللحم ومسجد ذي النورين رضي الله عنه عند مدخل النفق المفضي إلى سلطانه. وانظر ص /١٢٣/ من هذا الكتاب وانظر ديار سعد ص /١٠٦/.

(٢) مغازي الواقدي: ٢٠٤/١، ٢٠٥. الطبقات الكبرى: ٣٧/٢، والسيرة الحلبية: ١٣/٢.

ولله درّ سعد بن الربيع أية منزلة حلّ من رسول الله ﷺ. . . ؟ وبأية مكانة أقام دعوة رسول الله ﷺ من نفسه، . . . فمحمد رسول الله - ﷺ - يقصد منزله، ويدخل داره ليطلعه على أخطر قضية تحيق بالمسلمين. . . ويأخذ رأيه. . . ويجعله موضع سره ويستكتمه أمر أحرج مسألةٍ. . .

ومثل هذه الصعاب التي تنخلع لها أفئدة الناس فيهلعون. . . لا تنال من سعد بن الربيع، بل تَظْهَرُ المعادنُ الكريمة والنفوس الكبيرة والعزائم المتقدة عند الأهوال والشدائد. . . فتستعلن عزيزة بدينها قوية بإيمانها. . . ولا جرم. . فسعدٌ تلميذ النبوة النجيب، يجيب رسول الله - ﷺ - بشجاعة ورباطة جأش: يا رسول الله: إني والله «لأرجو أَنْ يكون في ذلك خيرٌ. . »، وأيم الله ما أعطينا الدنية في الجاهلية أفنعطيها في الإسلام. . . ، ونبي الله بين ظهرانينا. . . كنا ونحن «في غياهب الجاهلية الجهلاء أصحاب عزة وإباء فما أحرانا أن نَتَلَبَّس، بردائنا هذا، وقد أبدلنا الله بالجاهلية هدىً ونوراً» كان سعد بن الربيع يقول ذلك لرسول الله - ﷺ - وهو يستشرف للجنة، فيستروح عبيرها. . .

وأعاد سعد على مسامع النبي الكريم - ﷺ - أن أنصار الله جنود الإسلام الأوفياء. . . ، وأنهم باعوا الله أنفسهم وأموالهم، يوم بايعوا رسوله - ليلة العقبة - على السمع والطاعة، في العسر واليسر، والمنشط والمكره. . . فليأمر رسول الله بأمره.

فتهلل وجه النبي - ﷺ - ودعا للأنصار بخير. . . وكيف لا؟؟ ومثل جواب سعد يجعل القائد يطمئن أَنَّ جنود الله بخير وعافية ونعمة. . .

وكان رأى النبي - ﷺ - البقاء في المدينة. . . والدفاع عنها، وعدم الخروج منها. . . لكنَّ أحداث الأنصار وفتيانهم ومن فاتتهم بدرٌ، كانوا يتحرّقون للقاء العدوّ، حتى قال قائلهم: «يا نبيَّ الله لا تحرمْنا الجنّة. . . فوالذي نفسي بيده لأدْخلَنَّها. فقال له رسول الله - ﷺ - : «بِمَ»؟ قال: «بأني أُحب الله ورسولَه، ولا أَفِرُّ يوم الزحف. فقال له رسول الله - ﷺ - : «صدقْتَ»[1].

ونزل النبيُّ على رأيهم. . . ووصل إلى أحد - بعد أن انخزل المنافقون وهم ثلث الجيش من منتصف الطريق. . - .

ثم جعل - ﷺ - الرماة على الجبل، وأمرهم ألا يبرحوا مكانهم أياً كانت نهاية المعركة.

ثم نشبت الحرب. . . وأظهر المسلمون ضروب الشجاعة والإقدام، فصدقهم الله وَعْدَه، وضعضع الأعداء، وزلزل الأرض من تحتهم. . فَحَسَّهم المؤمنون بإذن الله. . . ومنح الكفار المسلمين أكتافهم فتتبعهم المسلمون تقتيلاً وغنماً. . .

فلمّا خالف الرماة أَمْر رسول الله - ﷺ -. . . فنزلوا ليشركوا إخوانهم في الغنيمة والفوز، وانشغل بعض المسلمين بالدنيا. . . صرفهم الله عن عدوهم، وقَلَبَ نصرهم هزيمة لِيبْتَليهم. . . فَتَوَقَّلوا الجبل، مصعدين، لا يلوون أحد. . . وهاج القوم واضطرب أمرهم، فانكفأ عليهم العدو. . . وانقلبوا على بعضهم. . . وذهلوا عن رسول الله - ﷺ - وتفرقوا في أحناء

---

(١) هو الصحابي الجليل نعيم بن ثعلبة، أحد بني سالم رضي الله عنه، (البداية والنهاية: ٤/١٤.

الوادي، وتوغّلوا في كل شعب ومنحى... وعندها ابتدر سعد بن الربيع رضي الله عنه قومه فصاح بهم: «ويحكم يا معشر الأنصار، أين ما بايعتم عليه رسول الله - ﷺ - ليلة العقبة... والله ما ولّيتم في الجاهلية أفي الإسلام...»[1]. وما زال بهم حتى جمّع جمعهم فكانوا درءاً لرسول الله ﷺ، فقاتلوا دونه، قتال من لا يخشى الردى، فلمّا اشتد القتال جلس رسول الله - ﷺ -.. تحت رايتهم...[2].

وجاء سعد بن الربيع يقْدُم ثلاثين من أبطال قومه كلّهم «يجيء حتى يجثوَ بين يدي رسول الله - [ﷺ] - ثم يقول: وجهي لوجهك الوفاء[3] ونفسي لنفسك الفداء، وعليك سلام الله غير مودّع»[4]. ثم ينطلق كالليث الهصّار يفرق العدو يميناً ويساراً، ولا يزال يجالد حتى يصاب، فتثخنه جراحه ويُقْتَلَ... وقد علا في جوّ المعركة دويٌّ المجاهدين: «أمِتْ... أمِتْ..»[5].

فلما رأى أبو سفيان[6] وأُبَيٌّ بن خلف[7] شدة قتال الأنصار

---

(١) الندوي: السيرة النبوية: ١٣٣، وانظر سيد قطب، في ظلال القرآن: ١/٤٥٦.
(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٣/٨٥٢. والبداية والنهاية: ٤/٢١.
(٣) وفاء: [دعاء بطول العمر]. يقال: مات فلان وأنت بوفاء أي بتمام عمرك وطوله.. دعاء له بالبقاء.. (أساس البلاغة: ٥٠٥)..
(٤) الطبقات الكبرى: ٢/٤٦.
(٥) كانت هذه العبارة شعار المسلمين يوم أحد (السيرة لابن هشام: ٢/٨٤٦)..
(٦) أسلم وحسن إسلامه رضي الله عنه، وأبلى في الإسلام أحسن البلاء..
(٧) طعنه رسول الله ﷺ في هذه المعركة (أُحُد) في عنقه فمات كافراً، فكان أشقى الناس.

واستبسالهم واشتمالهم على نبيهم، وأنهم لا يسلمونه حتى يَفْنَوا جميعاً... صاح أبو سفيان: «يا معشر الأوس والخزرج؛ خلّوا بيننا وبين ابن عمنا، ننصرفْ عنكم، فانّه لا حاجةَ لنا بكم»[1] فردُّوه بما يكره من القول والفعل[2].

---

(١) تاريخ الطبري: ٢/٦٤. والسيرة الحلبية: ٢/١٨.

(٢) فأجابوه على لسان كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه:

فـأبلغ أُبَيّـاً أنّـه فـال رأيـه	وحان غداة الشعب والحين واقع
أبى الله ما منّتك نفسـك إنه	بمرصاد أمر الناس راءٍ وسامع
وأبلغْ أبا سفيان أَنْ قد بدا لنا	بأحمدَ نورٌ من هدى الله ساطع
فلا ترغَبَن في حشد أمر ترومه	وألِّب وجمّع كل ما أنت جامع
ودونك فاعلمْ أَنَّ نقضَ عهودنا	أباه عليك الرهط حين تبايعوا
أباه البراءُ وابن عمرو كلاهما	وأسعـد يـأباه عليـك ورافـع
وسعد ـ أباه ـ الساعدي ومنذر	لأنفك انْ حاولت ذلك جادع
وما ابنُ ربيع انْ تناولتَ عهده	بِمُسْلِمه لا يطمعنْ ثم طامع(*)
وأيضاً فلا يعطيكه ابن رواحة	وإخفاره من دونه السم نـاقع
وفاءً به والقـوقلي بن صامت	بمنـدوحة عمـا تحاول يـافـع
أبـو هيثم أيضـاً وفيٌّ بمثلهـا	وفاء بما أعطى من العهد خانع
وما ابن حضير إن أردت بمطمع	فهل أنت عن أُحموقة الغي نازع
وسعد أخو عمرو بن عوف فإنه	ضروح لما حاولت ما لأمر مانع
أولاك نجـوم لا يغبّـك منهمُ	عليك بنحس في دجى الليل طالع

* * *

(*) ابن ربيع: هو صاحب هذه الترجمة، رضي الله عنه. وفي المحبّر:

وما ابن ربيـع إن تنـاولت عهـده   بمسلمـه لا تُـطْمِعَنْـكَ المـطامـعُ

والأسماء الواردة في القصيدة هي أسماء النقباء الإثني عشر الذين بايعوا رسول الله ﷺ، ليلة العقبة وانظر ص (٩٧) من هذا الكتاب.

المبحث الثالث
استشهاده
رضي الله عنه

- ١ -

دارت رحى معركة ضروس بين جند الله وحزب الشيطان. واستنفر المشركون كلَّ ما في مُكْنَتِهم للوصول إلى النبي ﷺ، والتخلص منه... ولكن هيهات فأنَّى لهم ذلك، وقد حفظ الله نبيه، وأحاطه برعايته وأمدّه بشجاعة وبطولة تفوق المعهود... وأيَّده بالملائكة من السماء[1]، وبالأنصار في الأرض... وكان سعد بن الربيع كالسيل العَرِم، يصول ويجول، بين يدي رسول الله - ﷺ -. فما رمى رسول الله ببصره إلى ناحية إلا اندفع سعد جهتها، ولا اقترب المشركون من رسول الله - ﷺ - إلا أهوى سعد إليهم، فكشفهم وأجلاهم... فولّوا عنه[2].

---

(١) ثبت في الصحيحين من حديث إبراهيم بن سعد عن أبيه عن جده عن سعد بن أبي وقاص قال: «رأيت يوم أحد عن يمين النبي ﷺ وعن يساره رجلين عليهما ثياب بيض يقاتلان أشد القتال، ما رأيتهما قبل ذلك ولا بعده؛ يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام...».

(٢) البداية والنهاية: ٤/٨. وانظر في ظلال القرآن: ١/٤٥٦.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: إن سعد بن معاذ قال: «لما اشتد الخطب يوم أحد، قال سعد بن الربيع له: «يا سعد أجدُ ريحَ الجنةِ من قِبَلِ أُحُد...». قال سعد بن معاذ فما استطعتُ ما صنع...»[1].

فلما رأوا ذلك تجمعوا مقبلين نحو رسول الله - ﷺ - فقال عليه الصلاة والسلام - حين غشيه القوم:

- «من رجل يَشْري لنا نفسه»؟ فتسابق نفر من الأنصار فقاتلوا واحداً تلو الآخر حتى قُتِلوا[2]... ثم ازداد المشركون عنفاً وطغياناً... فلمّا رَهَقوا رسول الله - ﷺ - قال: - «من يَردُّهم عنا، وهو رفيقي في الجنة...»[3]... فما لامست هذه الكلمة أسماع سعد بن الربيع - رضي الله عنه - حتى انتقل إلى عالم آخر، الجنة... الجنة...، الله... الله... رفيقي في الجنة وتطير حروف الكلمة أمام ناظري سعد بن الربيع ر ف ي قي، في الـ ج ن ـة... الجنة؟ رفيق من؟ - ويصحو سعد بن الربيع - بلى رفيق رسول الله ﷺ... في الجنة... وتستقر في فؤاده ويتعطش لتلك المنزلة المثلى... فَيَحنُّ... إليها بكل ذرة في كيانه... الجنة... الجنة... أهي التي بايعوا رسول الله - يوم بايعوه - لأجلها...[4]؟؟، أهي التي باعوا الله أموالهم وأنفسهم، ثمناً لها...؟؟ بلى، إنها هي الجنة، الجنة... ولقد آن وقت

---

(١) ابن حجر: تعجيل المنفعة، بزوائد رجال الأئمة الأربعة: ١٤٧.

(٢) السيرة النبوية: ٢/٨٦١. وانظر صحيح مسلم: باب الجهاد.

(٣) البداية والنهاية: ٤/٢٧.

(٤) انظر ص ٩٩ من هذا الكتاب.

الوفاء بالعهد ـ وهم الأوفياء ـ فأين عنهـا البَراحُ. . .؟ وَأَنْىٰ يتخلفون؟؟. بلى إنها الجنة. . . ولقد دَنَتْ الجنة ـ اليوم ـ منهم، فاشتمَّوا ريحها، وتنسموا عبيرها. . .

وتراءت الجنة لسعد بن الربيع ـ مزدانة متألقة. . .، تفغمه بشذاها. . . وتهيأ لدخولها. . . فانخلع من الدنيا. . . وتجرّد من أسبابها، فألقى درعه، وكسر غمد سيفه. . . ورمى بكل ما يثقله وطرح ما يعيقه. . . وخرَّ كالشهب على جموع المشركين، فما أهوى على أحد إلا غادره مولِّيـاً. . . أو صريعـاً فلمّا رأى المشركون ضراوة صنيع هذا البطل فيهم. . . وفعله بهم. . . ما يصمد له أحد إلا أزاله. . . اجتمعوا له واحتوشوه. . . فأُشْرِعت أرمـاحهم نحـوه[1]. . . وفُـوِقَتْ سهـامهم صـوبـه. . . وهـو مندفع. . . لا يبالي، وما زالوا به. . . وما زال بهم حتى شَخَبَتْ جراحه، فأنهكته، وهو يتشحَّط في دمه، ويترنَّح حتى هوى. . .

أجل هوى سعد بن الربيع، البطل. . . وهو يدفع ثمن الجنة ليتخذه الله شهيداً بين يدي رسوله ﷺ. . .

هوى، وبه سبعون ضربة، ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم[2].

ولا يكاد ينقضي التأمل مـن لفظة «ويتخذ منكم شهداء». . . والعجبُ منها. . . «وهو تعبير عجيب عن معنى عميق ـ إنَّ الشهـداءَ لمختارون. . . يختـارهم الله مِنْ بين المجاهـدين

---

(١) بشهادة رسول الله ـ ﷺ ـ له، كما سيأتي. . .
(٢) الكاندهلوي حياة الصحابة: ١/٥١٧، وفي ظلال القرآن: ١/٤٥٩.

ويتخذهم لنفسه ـ سبحانه ـ فما هي رزية إِذَنْ، ولا خسارة، أَنْ يستشهد في سبيل الله من يستشهد. إنما هو اختيار وانتقاء، وتكريم واختصاص... إنَّ هؤلاء همَ الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة ليستخلصهم لنفسه ـ سبحانه ـ ويخصهم بقربه...

ثم هم شهداء يتخذهم الله، ويستشهدهم على هذا الحق الذي بَعَثَ به للناس، يستشهدهم فيؤدون الشهادة... يؤدونها أداء لا شبهة فيه، ولا مطعن عليه، ولا جدال حوله يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق، وتقريره في دنيا الناس يطلب الله ـ سبحانه ـ منهم أداء هذه الشهادة، على أَنَّ ما جاءهم من عنده الحق، وعلى أنهم آمنوا به، وتجرّدوا له، وأعزوه حتى أرخصوا كل شيء دونه؛ وعلى أَنَّ حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق؛ وعلى أَنَّهم هم استيقنوا هذا، فلم يألوا جهداً في كفاح الباطل، وطرده من حياة الناس، وإقرار هذا الحق في عالمهم، وتحقيق منهج الله في حكم الناس... يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون. وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت. وهي شهادة لا تقبل الجدال والمحال...

... فهو إذن شهيد. أي شاهدٌ. طَلَبَ الله إليه أداء هذه الشهادة، فأداها. واتخذه الله شهيداً، ورزقه هذا المقام. هذا [بعض] فقه ذلك التعبير العجيب «ويتخذ منكم شهداء...»[1].

---

(١) في ظلال القرآن: ١/٤٧٦.

لقد كانت أُمنية سعد بن الربيع، أنْ يَسْلَمَ رسول الله[1] - ﷺ - وتحيا دعوته، وتنتشر رسالته، ولا يصل إليه العدو. . . وقد حقق الله لسعد ما أراد. . . فسلّمَ رسولَه، وحفظه، وانتشرت رسالته. . .

وانجلت المعركة؛ الامتحان الصعب، والاختبار الدقيق بكل ما حفلت به وما خلّفته. . . فسقط من سقط، وفاز من فاز.

لقد سقط المنافقون، والمرجفون فكشفهم الله وأخزاهم فبُعداً لهم وسحقاً[2]. ﴿وَليُمحِّصَ الله الذين آمنوا ويَمْحَقَ الكافرين﴾. آل عمران: ١٤١.

وعفا الله عمن تلكأ وضعف فتأخر.

وسبق الفريق الفائز؛ سعد بن الربيع، وإخوانه ممن اتخذهم الله شهداء. . .

- ٢ -

رسول الله، وسعد بن الربيع، بعد المعركة:

وما إن فرغ الناس مما هم فيه. . . حتى كان أول شيء فَعَله رسولُ الله - ﷺ - أَنْ قال:

---

(١) مرّ مالك بن الدخشم على سعد بن الربيع، وبه إثنا عشر جرحاً. . .، كلها خلص إلى مقتل، فقال: «علمتَ أنَّ محمداً قد قُتِل؟؟ قال سعد بن الربيع أشهد أن محمداً قد بلّغ رسالة ربه، فقاتِل عن دينك فإنَّ الله حيٌّ لا يموتُ. . .» (المغازي: ١/ ٢٨٠) ثم وَجَمَ سعد ألماً لما به، وغماً على رسول الله. . .

(٢) عبد الله بن أبي بن سلول، ومَنْ تبعه ممن انخزل معه عن رسول الله ﷺ - والذين قالوا «لو كانوا عِنْدَنا ما مَاتوا وما قُتِلوا. . .».

- «ما فَعَلَ سعدُ بن الربيع؟؟». ثم ما لبث أَنْ قال:

- «مَنْ رجلٌ ينظر لي، ما فعل سعد بن الربيع...؟؟».

فقال أحد الصحابة: أنا يا رسول الله...

وكأن النبي ﷺ استبطأه، فما لبث أَنْ قال:

- «مَنْ يأتيني بخبر سعد بن الربيع، فإني رأيت الأسنة قد أشرعت إليه»[1]. وأشار - ﷺ - بيده إلى ناحية من الوادي حوله.

فلمّا رأى الصحابة - رضي الله عنهم - أَنَّ النبي - ﷺ -: لَهِفٌ على سعد وخبره... قام أُبيٌّ بن كعب فقال: «أنا - يا رسول الله - أنظر لك ما فعل سعد بن الربيع...».

---

(١) وتذكر الروايات ثلاثةً من الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - الذين انتدبوا للقيام بأمر رسول الله ﷺ. فقد أخرج الحاكم: ٣٠١/٣، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «بعثني النبي ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع ثم ساق الخبر..، وعند ابن كثير في البداية والنهاية؛ أن الذي أرسله النبي ﷺ لطلب سعد بن الربيع هو محمد بن مسلمة: (٤٠/٤) وذكر ابن عبد البر في الاستيعاب أنَّ الرجل هو: أُبيٌّ بن كعب: (٣٤/٢، ٣٥) على هامش الإصابة» وانظر، الإصابة: ٢٦/٢، والاستيعاب على حاشية الإصابة: ٣٤/٢ - ٣٥. المغازي: ٢٩٢/١ - ٢٩٣، الطبقات الكبرى: ٥٢٢/٣ - ٥٢٤، والسيرة النبوية لابن هشام: ٨٧٦/٢، البداية والنهاية: ٤٠/٤. سيرة أعلام النبلاء للذهبي: ٣١٨/١، حياة الصحابة الكاندهلوي: ٥١٧/١. أسد الغابة: ٢٧٧/٢.

لشدة تلهّف رسول الله - ﷺ - كان يرسل الصحابي بإثر أخيه للوقوف على خبر سعد وأمره. فكان أن أرسل زيد بن ثابت، فتلبّث فبعث محمد ابن مسلمة، ثم أتبعهما بثالث وهو أُبيٌّ بن كعب. قال العلامة علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي «والاختلاف في اسم الرجل الذي أرسله، قد يدل على أنه أرسلهم كلهم؛ أُبيٌّ بن كعب، ومحمد بن مسلمة، وزيد ابن ثابت...» رضي الله عنهم أجمعين. السيرة الحلبية: ٣٨/٢ - ٣٩.

فقام وجعل يطوف بين القتلى... فبعد لأي عرفه... وصل أُبيّ بن كعب إليـه، والملائكـة تتهيأ لتـزفّه إلى الفـردوس الأعلى... وهو يرى أطيافها الحبيبة مقبلة نحوه، ساعية إليه.. وهو في نشوة عظيمة وسرور لا يدرك...

فوقف أُبيٌّ بن كعب عليه وراح يناديه بصوت شجي تخنقه العبرات.. - «يا سعد بن الربيع..، يا سعد.. بن.. الربيع.. لكنَّ سعداً كان في شُغُل عنه وعن دنياه... إنّه الآن في حالة من النعيم، والمسرة.. فوق إحساس البشر.. حاله من السعادة لا يدركها أُبيٌّ ولا سواه ممن على ظهر الأرض!!! وعلامَ يناديه؟ وماذا يبتغي منه؟؟ وما يسرّه أَنْ يرجع إليهم صحيحاً معافى وما في الدنيا شيء أحبّ إليه مما هو فيه الآن..!! وما جنّات الدنيا ونعيمها وثمارها.. ولذاتها بشيء في جنب ما يعاين... بيد أن أُبيّاً لمّا ناداه الثالثةَ قال: «يا سعد بن الربيع!! أنا أُبيٌّ ابن كعب...

وإِنَّ رسول الله أمرني أَنْ أنظر خبرك، وقال لي: «أقرئه مني السلام، وقل له: «كيف تجدُك..»؟.

فما إِنْ سمع سعدُ ذِكْر رسول الله - ﷺ - وتحيته... والسؤال عنه «حتى تنفّس كما يتنفس الكير» ثم قال وقد أشرق وجهه وعلاه الفرح والحبور: «وإِنَّ رسولَ الله لحيٌّ...»؟؟

قال أُبي بن كعب: نعم، وقد أخبرنا أنه شُرع لك اثنا عشر سناناً...» فاضطرب سروراً لحياة رسول الله... ولو استطاع قياماً لقام... بلى قد انتفض سعد مبتهجاً... وكيف لا..؟؟

وقد سمع المحبُّ ذكر حبيبه... وها هو يسأل عنه..!!

ثم فتح الشهيد السعيد عينين كليلتين متخضبتين بمسك دمه... ثم انفرجت شفتاه، لتعبّر بصدق وإيمان، عن سعادة غامرة ولتخرج من الدنيا، وقد صدقت ووفّت بما عاهدت عليه الله ـ بنصيحة مخلصة... فقال سعد:

ـ «أقرىء رسول الله ـ ﷺ ـ عني السلام، وقل له: «إِنَّ سعد بن الربيع، وجَدَ ريح الجنة...، ويقول لك: جزاكَ الله خيرَ ما جزى نبيّاً عن أمته، وقُلْ له: قد طعنت اثنتي عشرة طعنة كلها أجافتني[1]...، واقرأ على قومي الأنصار، السلامَ، وقُلْ لهم يقول لكم سعد بن الربيع: «الله.. الله..، وما عاهدتم عليه رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة العقبة.. فوالله ما لكم عند الله عذر، إِنْ خُلِصَ إلى نبيّكم، وفيكم عين تطرف[2]...».

وخَفَتَ الصوت... ففي تلك اللحظة تبادرت الملائكة، متباهية لتعرج بتلك الروح الطاهرة، والنفس المطمئنة إلى عِلّيين... «إِنَّ همَّ الدعوة، وشجونها وأحاسيسها، كل أولئك مما يخفق به قلب الداعية، وينبض به حتى لحظاته الأخيرة...

وسكن عن الخفقان... فوجم أُبيٌّ وقتاً ثم انحنى على سعد يُقَبِّلُهُ واختلطت الدموع بالدماء... ثم نهض، فترحّم عليه،

---

(١) أجافه، وجافه: وصل إلى جوفه.

(٢) وفي بعض الروايات: إن قُتل رسول الله ﷺ وفيهم واحد حي... الإصابة: ٢/٢٦٠.

واستغفر له . . . ومضى راجعاً إلى رسول الله - ﷺ - ليؤديَ رسالة الصدق الحقّة من الحبيب إلى حبيبه . . .

ولا يسألنْ أحد عن المشاعر النبويّة، التي أحسَّ بها القائد العظيم، تجاه سعد، الإنسان، الداعية، المجاهد الذي فَدّى دعوته بروحه، وكان له شرف الذود عن رسول الله ﷺ قال أُبيٌّ : «فرأيتُ رسولَ الله - ﷺ - لمّا سمع مقالة سعد، استقبل القبلة رافعاً يديه، يقول: «اللّهم الْقَ سعدَ بنَ الربيعِ ، وأنتَ عَنْهُ راضٍ »[1]»!! ثم قال ﷺ متأثراً «رحمه الله . . . نصح لله ولرسوله، حيّاً وميتاً . . . »[2].

وذاك - والله - تاج وضيء على مفرقه الأغر، وتلك لَعَمر الله - أرفع الأوسمة، يزرعها ﷺ في صدر جندي الإسلام.

ثم أمر به النبي - ﷺ - فوضعه إلى جنب عمه حمزة بن عبد المطلب - سيد الشهداء - أسد الله، وأسد رسوله . . . ومعه إخوانه الشهداء[3] رضي الله عنهم أجمعين . . .

ثم دفنه مع ابن عمه - وزوج أمه صهر أبي بكر الصديق - خارجة بن زيد، في قبر واحد. وهو يقول: «إنَّ كل جرح - أو كل دم - يفوح مسكاً يوم القيامة»[4].

---

(١) المغازي: ١/٢٩٣.

(٢) الاستيعاب: ٢/٣٤ - ٣٥.

(٣) السيرة النبوية: ٢/٨٧٨.

(٤) ذكرت كتب السير أن رسول الله ﷺ، وضع حمزة ثم صلّى عليه فكبّر سبعاً، ثم أُتيّ بالقتلى يوضعون إلى جوار حمزة فصلى عليهم - وعليه معهم، حتى =

أجل لقد تبوأ سعد ـ وإخوانه ـ أعلى الفردوس ـ بإذن الله فنال أعلى مراتب الولاية[1]... ولذلك رأيناه يسدي الشكر جزيلاً لرسول الله ـ ﷺ ـ كفاء ما دلّه على طريق السعادة والشهادة ولم يشأ سعد بن الربيع أن يخرج من الدنيا، قبل أن يسديَ لقومه الأنصار ـ خاصة ـ وللمسلمين ـ عامة ـ نصيحته الصادقة المخلصة...

ولمّا صدق سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ ربَّه، صدقه الله. فثبّته في آخر لحظات حياته. فتساوقت من فيه تلك الدررُ الخالدات أخرجها موقف الإيمان الراسخ، الذي قلّما نجده، إلا مِنْ أمثال سعد وإخوانه... ممن تعهدهم معلمُ الناسِ

= صلى عليه ثنتين وسبعين صلاة... ابن هشام: ٨٧٨/٢. قال ابن كثير «وذكره أحمد متفرداً فيه... وفي إسناده ضعف أيضاً من جهة عطاء ابن السائب، فالله أعلم...» والصحيح الذي عليه أهل العلم من المحدثين والفقهاء والمفسرين، أن النبيَّ ﷺ، لم يُصَلِّ على الشهداء لا في أحد ولا قبلها ولا بعدها... وإنما كان يأمُر بدفن الشهداء بثيابهم ودمائهم... روى البخاري بسنده... عن جابر بن عبد الله... أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أُحد في ثوب واحد. ثم يقول: أيهم أكثرُ أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير له إلى أحدهما قدّمه في اللحد، وقال: «أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يُصَلِّ عليهم، ولم يُغسَّلوا...» تفرد به البخاري دون مسلم ورواه أهل السنن... البداية والنهاية: ٤٢/٤. وانظر غزوة أحد محمد أحمد باشميل: ٢١٩. أقول: وقد يكون النبي ﷺ صلّى عليهم بعد فترة من أحد يؤيد ذلك ما كان يفعله عليه الصلاة والسلام من كثرة الدعاء لهم والاستغفار حتى التحاقه بالرفيق الأعلى والله أعلم.

(١) فتح الباري: ٣٤٧/٧.

الخيرَ - ﷺ - ولا جرم أَنْ كانت كذلك فهي نصيحة لله ولرسوله . . .

وإذا كان رسول الله - ﷺ - قد لحق بربه، فإنَّ دعوته حيَّة باقية خالدة ما بقي الدهر. . . إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . . فلا عذر لمن يتخلى عنها ولا يجاهد في سبيلها . . . ويفهمها كما فهمها البطل سعد بن الربيع واستشهد من أجلها . . . وهذا معنى قوله لمن قال له: «أعلمتَ أَنَّ محمداً قد قُتل؟؟؟°» فأجابه سعد المؤمن البطل: فانَّ الله حيٌّ لا يموتُ. . . قمْ فقاتل عن دينك فانَّ محمداً قد بلَّغ رسالة ربه!!!.

- ٣ -

رسول الله - ﷺ - وشهيد أُحُد:

تصرّمت وقعة أحد بكل ما خلّفته - في نفس رسول الله ﷺ، وأصحابه الكرام رضي الله عنهم . . . - من شجون، وتلتها أحداث سعيدة، كان خليقاً أن تُنسيَ القومَ (أُحداً. . .) وشهداءَها. . . ولكنْ هيهات، هيهات. . . فقد أودع رسول الله (أُحُداً) أماثلَ أصحابه، وأحبابه. فلا يفتأ يردد عن (أحدٍ): «هذا جبلٌ يُحبُّنا ونحبُّه. . .». فهو ﷺ يحبُّ الجبل[1] وشهداءه وكما ورد عن النبي ﷺ أنه كان يزور شهداء أُحُدٍ ويستغفر لهم. . ويأمر بزيارتهم. . فقد أُثر قوله: «اللَّهم إنَّ عبدْكَ ونبيَّك يشهدُ أنَّ هؤلاءِ

(١) رُوي عن النبي ﷺ: «أُحُدٌ جبل في الجنة، أوعلى أركان الجنة» وفاء الوفا: ٢/٩٢٦.

شهداءُ، فأْتُوهُم، وسلموا عليهم، فلن يُسلّم عليهم أَحَدٌ ما قامتِ السمواتُ والأرض، إلا ردّوا عليه[1].

وروى أبو داود، والحاكم في صحيحه... حديث: «لمّا أُصيب إخوانكم، بأُحُدٍ جعل الله أرواحَهم في جوف طير خضر تَرِد أنهارَ الجنة، تأكل من ثمارها.. وتأوي إلى قناديل معلّقة في ظل العرش، فلمّا وجدوا طيبَ مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلّغ إخواننا عنّا أَنّا أحياءٌ في الجنة، نُرزَق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا يكلّوا[2] عن الحرب؟ فقال تعالى: ﴿أنا أُبلّغهم عنكم﴾ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلُوا في سَبيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ...﴾ الآيات ١٦٩ ـ ١٧١: آل عمران[3].

وروى مسلمٌ والبيهقيُ من حديث أبي معاويةَ عن الأعمشِ عن عبد الله بن مرّة عن مسروق قال: سَأَلْنا عبدَ الله بن مَسعودٍ عن هذه الآيةِ: ﴿ولا تَحْسَبنَّ الذينَ قُتِلُوا في سَبيلِ الله...﴾ الآية فقال: أَمَا إنَّا قد سَأَلْنا عن ذلك رسولَ الله ـ ﷺ ـ فقال: «أرواحهم في جوف طير خُضْر تسرحُ في أيها شاءت ثم تأوي إلى قناديلَ معلّقةٍ بالعرش، قال فبينا هم كذلك إذا اطّلَع عليهم ربك اطلاعه فقال: «اسألوني ما شئتم». فقالوا: يا ربَّنا وما نَسْأَلُك ونحن نَسرح في الجنة في أيِّها شئنا؟؟. ففعل بهم ذلك ثلاثَ

---

(١) البداية والنهاية: ٤/٤٦. قال ابن كثير: حديث غريب، وأحكام تمني الموت محمد بن عبد الوهاب: ٤٧، وانظرها في موضعها من وفاء الوفا..: ٢/٩٣٠، وسيرة ابن هشام، وباقي السير..

(٢) في أسباب النزول للنيسابوري: «ولا ينكلوا عن الحرب..: ٩٥.

(٣) أسباب النزول: ٩٥ ـ ٩٦.

مرات، فلمّا رأوا أَنْ لن يتركوا مِنْ أَنْ يسألوا قالوا: «نسألُك أَنْ تَرُدَّ أرواحَنا إلى أجسادنا، نُقْتَلْ في سبيلك مرةً أخرى». قال: فلمّا رأى أنهم لا يسألون إلا هذا تُرِكوا»[1].

ويريد الله ـ سبحانه ـ بعد أن عَرَّف المنافقين حقيقة الموت والحياة... وأنهم بفرارهم لن يستطيعوا درءَ الموت عنهم.. والعذاب.

يريد أن يريح القلوب المؤمنة المطمئنة فيكشف لها عن مصير الشهداء بأَنَّهم «أحياءٌ» «عند ربهم» «يُرْزَقُون» «فَرِحِينَ بما آتَاهُمُ الله من فضله» وهم مستبشرون بمصائر مَنْ وراءهم من المؤمنين... فما الحسرةُ على فراقهم؟؟ وهم أحياء ـ «عند ربهم» ـ موصولون بالأحياء وبالأحداث فوق ما نالهم من فضل الله... وفوق ما لَقُوه من الرزق والمكانة... «فهؤلاء ناس منا، يُقْتَلون، وتفارقهم الحياة التي نعرف ظواهرها... ولكنْ لأنهم «قُتِلوا في سبيل الله...» وتجردوا له من كل الأعراض والأغراض... واتصلت أرواحهم بالله، فجادوا بأرواحهم في سبيله فإنَّ الله، يخبرنا الخبر الصادقَ، أنَّهم ليسوا أمواتاً وينهانا أَنْ نحسبهم كذلك، ويؤكد لنا أنهم أحياءٌ «عنده» وأنهم يرزقون[2] ويفرحون وينعمون...

ولم يترك رسول الله ﷺ، زيارة سعد وإخوانه من شهداء أُحد ـ رضي الله عنهم ـ بل لم يغيبوا عن باله، حتى إذا كان في أواخر

---

(١) البداية والنهاية: ٤/٤٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/٥١٢.

أيامه، وهو في مرضه الأخير ـ كما تقول الصديقة عائشة رضي الله عنها: «أَمَرَنا رسولُ الله ـ ﷺ ـ أن نصبَّ عليه من سبع قُرَب مِنْ سبع آبار، ففعلنا، فلما اغتسل، وجد الراحة، فَصَلَّى بالناس، ثم خطبهم، واستغفر للشهداء من أصحاب أُحُدٍ ودعا لهم...»[1] ثم صلّى على سعد بن الربيع وإخوانه بعد ثماني حجج قبيل لحوقه بربه ـ عزَّ وجل ـ كالمودع لهم[2]...

ولما أجرى معاوية رضي الله عنه، العينَ ـ بعد ست وأربعين سنة من استشهادهم نادى مناديه: من كان له قتيل بأحد فليشهد، فخرج الناس إلى قتلاهم، فوجدوهم رِطاباً... يتثنون، وما حفروا فتراً من تراب، إلا فاح عليهم ريح المسك.. وكان قبر سعد بن الربيع وخارجة بن زيد معتزلاً، فتُرِك، وسُويّ عليه التراب، وقبرهما غرب قبر حمزة بنحو خمسمئة ذراع. رضي الله عنهم أجمعين[3].

ولم يغب رسول الله ـ ﷺ ـ زيارة أهل صاحبه الشهيد البطل سعد بن الربيع... فكما كان يزوره قبل استشهاده كذلك راح يتفقد أهله وأسرته بعد استشهاده.. يصحبه مَنْ حضر من أصحابه، رضي الله عنهم... وكما كان سعد، رضي الله عنه يحتفي برسول الله ـ ﷺ ـ وبمقدمه الكريم، فكذا كانت زوجته،

---

(١) الطبقات الكبرى: ٢/٢٥٠ ـ ٢٥١.

(٢) انظر فتح الباري: ٣٤٨/٧ رقم الحديث: ٤٠٤٢ وكذا: ٤٠٨٥، ٣٧٧/٧.

(٣) الطبقات الكبرى: ٥٢٤/٣، ووفاء الوفا: ٩٣٨/٣ ـ ٩٣٩.

رضي الله عنها، تحتفي برسول الله ﷺ، وبمن معه من صحبه...

فكان رسول الله يأتي إليهم، ويسلم عليهم ويحمل صغيرتهم، ويَمْسَحُ عليها ويُباركها[1]... فيعوضهم عن حنان أبيهم وكيف لا.. وهو ﷺ البرُّ الرؤوفُ الرحيم... هكذا كان سيد الأنام يكرم هذه اليتيمة وأهلها...

وقد روى الطبراني عن جابر زيارة رسول الله ﷺ، وصحبه لأهل سعد، وكيف أكرمتهم زوجة سعد وبسطت لهم تحت النخل... وأطعمتهم. فكان عليه السلام يكثر زيارتهم ويجلس على بئرٍ لديهم.. وكانت زوجة سعد ـ رضي الله عنها ـ تصنع الطعام، وتدعو رسول الله وصحبه.. ليتشرف منزلها.. وتعم البركة فيه.. ولِما ترى من استئناس الرسول الكريم ـ لديهم ـ ﷺ[2].

وكانت تحفد بالرسول وبمن معه لتنال البركة وطيّب الدعاء... وهكذا تجد رسول الله ـ ﷺ ـ كما كان محبّاً لسعد في حياته فهو وفيٌّ له بعد استشهاده يكرمه في آله... ويحفظه فيهم...

---

(١) المعرفة والتاريخ: ١/٢٨١.

(٢) روي عن عبد الرحمن بن عوف أنه رأى رسول الله ﷺ جاء بستان سعد ابن الربيع ـ الذي بالأسواف ـ فتوضأ وصلى ركعتين فسجد سجدةً أطال فيها، فأشفق عليه عبد الرحمن وسأله فقال عليه الصلاة والسلام، إنَّ جبريل عليه السلام، بشَّره أنه من صلى عليه صلى الله عليه، ومن سلم عليه، سلم الله عليه، فسجد لله شكراً. المدينة بين الماضي والحاضر ٣٢٨.



الفصل الرابع

مكانته وروايته

- المبحث الأول: منزلته ومناقبه.
- المبحث الثاني: ما روي عنه من أحاديث.



المبحث الأوّل

منزلته ومناقبه

«روى خارجة بن زيد بن ثابت عن أمِّه أمِ سعد بنت سعد ابن الربيع عن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، شيئاً في مناقب سعد بن الربيع، رضي الله عنه».

الإصابة: ٤/٤٥٦.

تحلى سعد بن الربيع الأنصاري، رضي الله عنه، بجملة خصال حميدة، أحلّته من رسولِ الله - ﷺ - أرفع منزلة، فكان يلقاه بالبشر والإقبال، إنْ حضر، ويسأل عنه ويتفقده، إنْ غاب... وقد وقفنا - فيما مضى على شيء كثير، من موقِعه من رسول الله - ﷺ - ولا جَرَمَ فسعدٌ - لذلك - أهلٌ.. وسعد ابن الربيع، واحد من أولئك النفر الأبرار، الأطهار.. الأنصار... بما لهم من الفضل وما خُصوا به من ثناء.. «وفي كل دور الأنصار خير...» رضي الله عنهم، جميعاً..

ثم فضل عليهم سعد بمزايا، جعلت منه رجلاً خليقاً أن يسود قومه في الجاهليّة والإسلام.

لقد كان سعد، رضي الله عنه، على جانب عظيم من الكرم والنجدة... وقد مكّنه ثراؤه العريض[1] مع شهامته وفروسيته وشجاعته، وإبائه وإيثاره من تسنُّم ذروة الشرف في قومه فضلاً عما ألمّ به من ثقافة وعلم ودراية بما كان معروفاً لديهم.. آنذاك.

ولقد جاء سعدَ بن الربيع الشرف من أطرافه... فله من المال الغاية... ومن شرف أسرته ومقامها الكبير النفوذ والسطوة، ومن العلم نهايته بين العرب ـ فقد كان يكتب ويقرأ والكتابة كانت نادرة في العرب... ولقد كان سيداً يسعى إلى تسكين الفتن والأحقاد بين أسرته (الخزرجية) وبين أبناء عمه (الأوسية)...

ولقد كان يطعم الجائع ويكسو العاري... ويُحْسِن إلى الغادي والرائح...، حتى لقد ملأ (يثربَ) ذكراً عاطراً...

لم يكذبْ مرةً، ولم ينافقْ... آثر الناسَ على نفسه في كلِ ما فعل، وعرف أهل (المدينة) إيثاره فكان له في أنفسهم مقام وأي مقام[2]...

مع ما حباه الله من العقل الراجح والرأي السديد... وبعض هذه الخصال كافية لكي يتبوّأَ ذروة الزعامة، فكيف إذا اجتمعت كلها في رجل واحد... وزاد عليها النسب الصريح... فلا غرو أَنْ رأينا سعداً، رضي الله عنه، سِنام قومه في الجاهلية.

---

(١) انظر الأحاديث الشريفة السالفة الذكر: «لقد علمت الأنصار أني من أكثرها مالاً..»، فتح الباري رقم الحديث: ٣٧٨.

(٢) شهداء الإسلام في عهد النبوة: ٥٣، وما بعدها (بتصرف يسير).

ولعلّ رجاحة عقله، وأصالة رأيه، وصفاء ذهنه.. هي التي جعلته يُقْبِل على رسـول الله ـ ﷺ ـ لأول وهله ويتقبل منـه الإسلام... فيسلم ويسلم قومه بإسلامه... فهو من السابقين إلى الإسلام من الأنصار[1].. ومن الذين تمكّن الإيمان في قلوبهم، ومن الصادقين في أقوالهم. المخلصين في دعوتهم، ثم هو من أصحاب العقبة، بل هو نقيب قومه ليلتها.. وقد ورد في الأثر «أن جبريل عليه السلام كان يشير إلى النبي ﷺ إلى من يجعله نقيباً: فلا يُحدّث أحد في نفسه، أَنْ يُؤخذ غيره، فإنما يختار لي جبريل...»[2].

ثم هو ـ رضي الله عنه ـ بدريٌ، وفيهم يقول المصطفى ﷺ: «لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم...».

وهو من أهل الرأي والمشورة في الإسلام.. فقد أطلعه النبي ﷺ على كتاب عمه العباس إبان غزوة أحد.. وشاوره في الأمر، وأَخْذِ رأي مَنْ قِبَله من الأنصار.. ولعلّ أروع ما يحفل به تاريخ هذا الصحابي الجليل، ما وقفنا عليه في أمر إخائه مع عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنهما، وما تجلّى من جوده.. وصدقه، وزهده في الدنيا وتفاهتها في عينه، وبذلها في ذات الله... مع لين جانبه ودماثة خلقه... ثم عظم تضحياته في المال والنفس في سبيل الله.

---

(١) تعجيل المنفعة: ١٤٧.

(٢) السيرة الحلبية: ١/٤١١، والبداية والنهاية: ٣/١٦٠.

كذلك نجد شجاعته النادرة، وبسالته الفائقة، رضي الله عنه في جهاده مع رسول الله - ﷺ - في بدر وأحد، ومدافعته عن رسولِ الله ﷺ. وإقدامَه نَفْسَهُ على العدو غير مبال بما جمّع الأعداء له. . حتى شهد له بذلك رسول الله. بإقدامه وصدقه عند اللقاء. . مع تحزّب الأحزاب ضده، واصطلاحهم عليه. . . حيث يقول النبي الكريم - ﷺ - «رأيت سعداً يوم أُحد وقد شرع فيه اثنا عشر سناناً»[1].

مع صدق وفائه بما عاهد الله عليه، وبيعه لله روحَه. . . ثم لم ينسَ - وهو على أعتاب الآخرة. . . - إسداء النصح، لله ولرسوله وللمسلمين عامّة، ولقومه الأنصار خاصة، بالتمسك بالجهاد. . وبالزهد بالدنيا، مذكِّراً إياهم الوفاء بالعهد. . .

وكما بدأ حياته الإيمانية بالسلام على النبي - ﷺ - ختمها بالسلام عليه، عليه الصلاة والسلام. . . مما وقفنا عليه من ذلك الكلام العظيم الذي لا يُلْهَمُهُ أَحَدٌ - عند الحشرجة - إلا من أراد الله به الخير، وقبِله ورضي عنه فختم له على ذلك. . .

فلا نعجبُ بعدها، أَنْ نجد اهتمام الرسول الكريم - ﷺ - بسعد عقيب (أُحُد). . . وثمة سؤال يُلح على النفس: لَمَ لَمْ يسأل النبي - ﷺ - عن أحد سواه. . .؟؟ ولم يتفقد أحداً غيره. . .؟؟ أجل لقد كان عدد جيش المسلمين بضع مئات وتشرف بالشهادة من الجيش بضعُ عشرات. . . فلم يلتفتِ النبي

---

(١) الطبقات الكبرى: ٥٢٣/٣، والاستبصار: ١١٤.

عليه السلام إلى أحد من هؤلاء الكرام رضي الله عنهم ـ بالسؤال الخاص إلا إلى ابن الربيع أفكان ذلك مصادفة من النبي الذي لا ينطق عن الهوى. . .؟؟ اللَّهم لا فذاك سر جواب السؤال الكريم: «ماذا فعل سعد بن الربيع. . .»؟؟ سؤال رسول الله ﷺ. . . لا تخطئه في أي كتاب من الكتب التي تناولت التاريخ والسير والتراجم والمغازي. . . بل إنك واجده في كل الكتب ولدى كل الذين كتبوا. . .

لقد قدّر النبي ﷺ تضحياته وبطولاته وبسالته وصبره ومنازلته. . حتى منحه ـ ﷺ ـ شهادة الحق فقال: «إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله. . .».

بل تكاد حياته كلها تكون مناقب وفضائل. . . حتى استحق بجدارة وسام الثناء من الرسول الكريم: «رحمه الله فقد نصح الله ولرسوله حياً وميتاً. . .».

وكما عرف النبي ـ ﷺ ـ لسعدٍ قدره، ومنزلته فأثنى عليه، بالذي هو أهله، كذلك نجد خليفته الصديق، رضي الله عنه يقدر للشهيد البطل سعد بن الربيع مكانته، مراعياً حقه. . . يحفظه في أهله بعد استشهاده. . . وقد اشتهر حبّ الصدِّيق المخلص لسعد، حتى كان يروي فضائله، ويذيعها. . .

وقد روى الطبراني، من طريق خارجة بن زيد بن ثابت عن أم سعد بنت سعد بن الربيع، أنها دخلت على أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فألقى لها ثوبه، حتى جَلَسَتْ عليه، فدخل عُمر، فسأَله، فقالَ: «هذه ابنةُ مَنْ هو خيرٌ مني، ومنكَ». قال: «ومَنْ

هو يا خليفةَ رسول الله ـ ﷺ ـ»؟. قال: «رجل قُبِضَ على عهد رسول الله ﷺ، تبوّأ مقعدَه من الجنَّة، وبقيتُ أنا وأنتَ. . .»[1].

ولعلّ أروع ما يتجلى إكرام الله لسعد بن الربيع، رضي الله عنه، ما ذكر في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء﴾[2].

قالوا: إنها نزلت في سعد بن الربيع وفي امرأته. . «وذلك أنها نشزت عليه فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: «أفرشته كريمتي، فلطمها» فقال النبي ـ ﷺ ـ: «لتقتصَّ من زوجها». وانصرفت مع أبيها لتقتصَّ منه، فقال النبي ـ ﷺ ـ: «ارجعوا. . هذا، جبريل عليه السلام، أتاني، وأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿الرجالُ قوّامُونَ على النِّساء بما فَضَّل الله بعضَهُمْ

---

(١) الإصابة: ٢/٢٧. وسير أعلام النبلاء: ١/٣١٨، والسيرة الحلبيّة: ٢/٣٩.

وقد كانت آنذاك في حوالي التاسعة أو العاشرة، من عمرها، رضي الله عنها. . . وأبو بكر يقولها لعمر رضي الله عنهما، من باب التواضع منه، والإقرار بالفضل لسعد، والتنويه به. . . وإلا فسيدنا أبو بكر خير من طلعت عليه الشمس إلى أن تقوم الساعة ـ حاشا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وشبيه بهذا ما قاله عبد الرحمٰن بن عوف، رضي الله عنه، لما قُدِّم له إفطاره ـ وكان صائماً ـ لحماً. . وغيره. قال: «استشهد مصعب بن عمير، وهو خير مني فلم يوجد ما يُكفَّن فيه. . . ثم بكى، وقال: «أخشى أن تكون قد عُجِّلت لنا طيباتنا. . » ثم رفع الطعام فلم يأكل. فعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه من سابقي المهاجرين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة المجمع على فضلهم وتقدمهم، وأحد الستة أصحاب الشورى، وإنما قال ذلك إقراراً لمصعب بالفضل رضي الله عنهما. . . وانظر: فتح الباري: ٧/٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٢) سورة النساء: ٣٤.

على بَعْضٍ وبِمَا أنْفَقُوا مِنْ أَمْوالهم، فالصَّالحاتُ قانِتَاتٌ حافظاتٌ للغيب، بما حفظَ الله واللاَّتي تخافُونَ نُشُـوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ، واهْجُرُوهُنَّ في المضاجِعِ، وأَضْرِبُوهُنَّ...﴾» النساء: ٣٤.

فقال رسول الله - ﷺ -: «أردنا أمراً، وأراد الله أمراً، والذي أراد الله خيرٌ»[1] نعم والذي أراد الله خير، ورفع القصاص. وفي رواية أردنا أمراً، وأراد الله أمراً غيره، وفي رواية أخرى أردنا أمراً فأبى الله تعالى فلأجله أنزل الله - سبحانه - قرآناً يُتلى... وتنزيهاً له - رضي الله عنه - عَنْ أَنْ تلطمه امرأة ناشز في غير حق... وتبيان لما له من الفضل والسبق والمكرمات رضي الله عنه.

ولما اتقى الله سعدٌ، حفظه الله في ابنتيه من بعده..، ففي ابنتيه وأمهما... ولأجْلِهن أنزل الله تعالى آية المواريث. فقضى بها بين المسلمين... قال جابر بن عبد الله، رضي الله عنه: -

«لما قُتل سعد بن الربيع، بأُحُدٍ... جاء أخوه فأخذ ميراثه - وكان المسلمون يتوارثون على ما كان في الجاهلية... حتى قُتل سعد بن الربيع فلما قبض عمهن المال - ولم تنزل الفرائض بعدُ. وكانت امرأة سعد امرأة حازمة - صنعت طعاماً خبزاً ولحماً - ثم دعت النبي - ﷺ - وهي يومئذ (بالأسوافِ)[2]. [قال]

---

(١) النيسابوري، أسباب النزول: ١١٠ وحاشية الصاوي على الجلالين جـ ٢١٧/١. وقد سمّى ابن مقاتل زوجة سعد (حبيبة بنت زيد) وانظر ص (٧٣) من هذا الكتاب.

(٢) الأسواف: محلة بالمدينة المنورة شمال البقيع، وقد انتقلتْ إليها زوج سعد، بعد استشهاده وأخْذ أخيه المال، والله أعلم. وانظر وفاء الوفا جـ ١٢٢٥/٤. ومحلها اليوم - بالتحديد - قرب مسجد أبي ذر، وقد كان يسمى مسجد الأسواف، أو مسجد الشكر. وكانت هذه المنطقة لسعد ابن =

وانصرفنا إلى رسول الله - ﷺ - من الصبح. . . فبينا نحن جلوس عنده نذكر وقعة أُحُد، ومن قُتِل من المسلمين، ونذكر سعد بن الربيع. . . إلى أَنْ قال - ﷺ - : «قوموا بنا، فقمنا معه، ونحن عشرون رجلاً، حتى انتهينا إلى الأسواف فدخل رسول الله - ﷺ - ودخلنا معه، فنجدها قد رشّتْ ما بين سورين، وطرحت خصفة، قال جابر بن عبد الله: والله ما ثمَّ وسادة ولا بساط[1]. . . ، فجلسنا، ورسول الله - ﷺ - يحدثنا عن سعد ابن الربيع ويترحَّم عليه ويقول: لقد رأيت الأسِنَّةَ شُرعتْ إليه يومئذ حتى قُتِل. فلمّا سمع ذلك النسوة بكين، فدمعتْ عينا رسولِ الله - ﷺ - وما نهاهن عن شيء من البكاء، قال جابر: ثم قال رسول الله - ﷺ - : «يَطْلُعُ عليكم رجل من أهل الجنَّة». قال: فتراءَينا مَنْ يطلع، فطلع أبو بكر، رضي الله عنه، فقمنا فبشرناه بما قال رسول الله ﷺ، ثم سلّم، فردّوا عليه، ثم جلس، ثم قال رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم رجلٌ من أهل الجنّة، فتراءينا من يطلع من خلال السعف، فطلع عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، فقمنا فبشّرناه بما قال رسول الله - ﷺ - فسلّم ثم جلس، ثم قال: «يطلع عليكم رجل من أهل الجنة» فنظرنا من خلال السعف، فإذا علي بن أبي طالب[2]، رضي الله عنه، فقمنا

= الربيع وفيها بعض بساتينه وانظر: إبراهيم العياشي: المدينة بين الماضي والحاضر / ٣٢٦ وما بعدها. وانظر حاشية ص (١٥٩) من هذا الكتاب.

(١) ومن أين لها وقد أخـذ حموها مال زوجها كله. . والخصفة: قطعة كبيرة من جلد. . .

(٢) في الأوسط للطبراني عن جابر: «خرج رسول الله ﷺ زائراً لسعد بن الربيع =

فبشرناه بالجنة، ثم جاء فسلّم ثم جلس. ثم أوتي بالطعام. قال جابر: فأوتي من الطعام بقدر ما يأكل رجل واحد أو اثنان، فوضع رسول الله - ﷺ - يده فيه فقال: «كلوا بسم الله»!! فأكلنا حتى نَهِلْنا، والله ما أرانا حركنا [منه] شيئاً.

ثم قال رسول الله - ﷺ - : «إرفعوا هذا الطعام، فرفعوه ثم أُتينا برطبٍ في طبقٍ، باكورة - أو مؤخّر - قليلٍ، فقال رسول الله - ﷺ - : «بسم الله كلوا»!! قال: فأكلنا حتى نهلنا، وإني لأرى في الطبق نحواً مما أُوتي به.

وجاءت الظهر، فصلّى بنا رسول الله - ﷺ - ولم يمسَّ ماءً[1] ثم رجع إلى مجلسه، فتحدث رسول الله - ﷺ - ثم جاءت العصر، فأُتي ببقية الطعام نتشبع به، فقام رسول الله - ﷺ - فصلّى العصر، ولم يمسَّ ماء، ثم قامت امرأة سعد بن الربيع فقالت: «يا رسول الله هـاتان بنتا سعد، وقد قُتل أبوهما - معك - يوم أُحُد شهيداً، فجاء عمُّهما وأخذ ما ترك (سعد)، فلم يدع لهما مالاً، وإنما يُنْكَحُ - يا رسول الله - النساءُ على المال. فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهم أَحْسِنِ الخلافةَ على تركته، لم ينزل عليّ

= ومنزله بالأسواف (يقصد بعد استشهاده طبعاً، لأن منزله بالسنح. . .) وساق الحديث فذكر يطلع عليكم رجل من أهل الجنة. . فسمّى أبا بكر فعمر فعثمان. . . ومثله عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ جلس على بئر بالأسواف، وأدلى رجليه فيها، وذكر مجيء أبي بكر ثم عمر ثم عثمان مبشراً إياهم بالجنة. . .» معجم الأوسط للطبراني.

(١) يقصد لم يمس ماءً من الطعام.

في ذلك شيء، وعودي إليَّ إذا رجعتُ يقضِ الله في ذلك»[1].

قال: فلما رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، جلس على بابه، وجلست معه، فأخذ رسولَ الله - ﷺ - بُرَحاءُ حتى ظننا أَنَّه أُنزل عليه. قال: فسُرِّي عنه، والعرق يتحدر عن جبينه مثل الجمان. فقال: «عليَّ بامرأة سعد»! فخرج أبو مسعود عقبة بن عمرو، حتى جاء بها. قال: وكانت امرأة حازقة جَلْدَة. فقال: «أين عمُّ ولدك»؟؟ قالت: يا رسول الله، في منزله. قال: «ادعيه لي»! ثم قال ﷺ: «اجلسي»! فجلستْ، وبعثَ رجلاً يعدو إليه، فأتى به وهو في بلحارث بن الخزرج[2]، فأتى وهو متعب. فقال رسول الله - ﷺ -: «ادفع إلى بنات أخيك ثلثي ما ترك أخوك» - فكبّرت امرأته تكبيرة سمعها أهل المسجد [ثم] قال رسول الله ﷺ: «ادفع إلى زوجة أخيك الثُمُنَ، وشأنك وسائر ما بيدك». ولم يورّث الحَمْل يومئذ[3]، وفي الإصابة عن جابر: أخرجه أبو داود من طريقه قال: خرجنا مع رسول الله حتى جئنا امرأة من الأنصار في الأسواف (يعني امرأة سعد بـن الربيع..) ثم ساق الخبر. وقد صرّح بشخصها في خبر تالٍ قال: إن امرأة سعد بن الربيع، قالت: يا رسول الله، إن سعداً استشهد وترك ابنتيه... وساق

---

(١) فنزلت آية المواريث... أخرجه أحمد، وابن سعد... وأبو داود في الفرائض والترمذي.

(٢) يعني في منازل قومه بالسنح.

(٣) نظر سير أعلام النبلاء: ٣١٩/١، ووفاء الوفا: ١١٢٥/٤ - ١١٢٦، والمغازي: ٣٢٩/١ - ٣٣٠ - ٣٣١. الرازي التفسير الكبير: ٢٠٣/٩ - ٢٠٤. وصفوة التفاسير: ٢٦٢/١.

الخبر... وأخرجه الترمذي والحاكم من طريق عبيد الله ابن عمر، والرقي عن ابن عقيل عن جابر قال: جاءت امرأة سعد ابن الربيع بابنتيها إلى رسول الله... فذكر نحوه[1]. فأجمعوا أَنَّ آية المواريث نزلت لأجلهن رضي الله عنهن واستجاب الله دعوة رسوله ﷺ: «اللَّهم أَحْسِن الخلافة في تركته...» فقال تعالى: ﴿للرجَالِ نصيبٌ مما تَرَكَ الوَالِدانِ والأقْرَبُونَ، وللنساءِ نصيبٌ...﴾ النساء: ٧.

﴿... يُوصيكُمُ الله في أَوْلَادِكُمْ للذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْن، فانْ كُنَّ نساءً فَوْقَ اثْنَتَين فَلَهُنَّ ثُلُثَا ما تَرَكَ...﴾ النساء: ١١[2].

وإذا كان سعد بن الربيع رضي الله عنه، قد رأى مقعده من الفردوس الأعلى ـ بأمّ عينيه فعبّرَ عن ذلك بفرحة عظيمة، وشكرٍ لله ولرسوله جزيلٍ ـ، فإنَّ حادثةً عجيبة أَجمعتْ عليها كتبُ الرجال والتراجم والسير...

ذلك أَنَّ أخاً لسعدِ بن الربيع ـ لأمه (زيد بن خارجةَ) وكان من صالحي الأنصار... مات في زمن عثمان بن عفان، رضي الله عنه فتكلَّمَ بعد موته... ومع عِظَمِ درجاته فلم يَرقَ لدرجة، أبيه خارجةِ بن زيد بن أبي زهير، وأخيه لأمه البطل الشهيد السعيد سعدِ بن الربيع رضي الله عنهم أجمعين... قال عنه الحافظ ابن حجر رحمه الله في الإصابة: «زيد بن خارجة بن زيد بن أبي زهير.... وذكر البخاري وغيره أنَّه الذي تكلّم بعد

(١) الإصابة: ٤/٤٨٧ ـ ٤٨٨.
(٢) النيسابوري: أسباب النزول: ١٠٧.

الموت . . . وسيأتي بعض طرق ذلك في ترجمته»[1]، وقد كادوا يشتجرون فيمن يتولى غسله.

وقد أخرج البيهقي، عن سعيد بن المسيب: أَنَّ زيد ابن خارجة الأنصاري ثم من بني الحارث بن الخزرج - رضي الله عنه - توفي في زمن عثمان بن عفان، رضي الله عنه، فَسُجِّيَ، بثوبه. ثم إنهم سمعوا جلجلة في صدره ثم تكلّم فقال: أحمد، أحمد في الكتاب الأول، صدق، صدق، أبو بكر الصديق، الضعيف في نفسه القوي في أمر الله، صدق، صدق. عمر ابن الخطاب القوي الأمين، في الكتاب الأول صدق، صدق. عثمان على منهاجهم مضت أربع وبقيت ثنتان، أتت بالفتن[2].

وأخرج الطبراني عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: «بينما زيد بن خارجة يمشي في بعض طرق المدينة، إذ خرَّ ميتاً بين الظهر والعصر فنقل إلى أهله، وسجّيَ في ثوبين وكساء، فلما كان بين المغرب والعشاء [اجتمع] نسوة من الأنصار، [فصرخن] حوله، إذ سمعوا صوتاً من تحت الكساء يقول: « . . . ثم ساق الخبر المتقدم ثم قال: «الله أكبر هذه الجنَّة . . وهذه النار. وهؤلاء النبيون والصديقون. سلامٌ عليك، يا عبد الله بن رواحة، هل أَحْسَسْتَ لي خارجة (يعني أباه)، وسعداً (يعني سعد ابن الربيع أخاه لأمه) اللذين قتلا يوم أحـد. . . . .» ثم خفت الصوت . . .

---

(١) الإصابة: ٢/٢٦٥.

(٢) أخرجه البيهقي عن الحاكم، فذكره بإسناده وقال: هذا إسناد صحيح وله شواهد.

وهذه الروايات مجمع عليها لا يختلفون في ذلك[1] ـ كما يقول ابن عبد البر رحمه الله.

ورواه ثقات الشاميّين عَنِ النعمان بن بشير، ورواه ثقات الكوفيين عن يزيد بن النعمان بن بشير عن أبيه، رواه يحيى ابن سعد الأنصاري عن سعيد بن المسيب...[2].

فأية منزلة تلك التي تسنَّمها البطل الشهيد سعد بن الربيع الأنصاري رضي الله عنه؟ وأية عاقبة هانئة آمنة سعيدة تلك التي نالها سعد بن الربيع؟ بلى إنها رفقة رسول الله ﷺ بالجنة.

ونحن نرجِّح أن لسعدٍ رضي الله عنه من المآثر والمناقب الشيء الكثير، رضي الله عنه. وما خفي عنا أكثر مما عرفنا... حتى غدت مناقبه أهلاً لأن يتحدث عنها أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، ويرويها عنه الخلف عن السلف...[3].

---

(١) ١ ـ الإصابة: ١/٤٠١ و٥٦٥، ٢/.
٢ ـ الاستيعاب: ١/٢١٩ ـ ٢٢٠، ٥٦١، ٥٦٢.
٣ ـ الطبقات الكبرى: ٣/٥٢٤، ٨/٣٦٤.
٤ ـ ابن أبي الدنيا (من عاش بعد الموت): ١٧.
٥ ـ البداية والنهاية: ٦/١٦٤ ـ ١٦٥.
٦ ـ أحكام تمني الموت: ٤٨، ٤٩، ٥٠.
٧ ـ حياة الصحابة: ٣/٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠.
٨ ـ أسد الغابة: ٢/٢٧٧.
٩ ـ السيوطي: شرح الصدور بشرح أحوال الموتى والقبور: ٩٧.

(٢) الاستيعاب: ١/٥٦٢.
ذكر بعضهم أن زيد بن خارجة عَنَى أخاه سعد بن خارجة، والله أعلم.

(٣) انظر الإصابة: ٤/٤٥٦.

المبحث الثاني
ما رُوي عنه من أحاديث

هذا جانب لم أُرِدْ أن أحوم حوله... لأمور عدة... أهمّها؛ ندرة ما روى سعد، أو ما رُوي عنه، وقد كنت ألمحت إلى ذلك في مطلع هذه الصفحات...

وما وصَلَنا من مروياته لا يخلص من كلام... والسبب ـ عندي ـ يرجع إلى أن سعداً رضي الله عنه، لم يُولِ هذا الجانب كبير اهتمامٍ، فقد كان شغله الشاغل ـ فيما رأينا ـ تثبيت دعوة النبي ﷺ، ونشرها... والجهاد في سبيلها حتى الموت... ـ وقد كان ـ.

ولكل ميدان أبطاله وفرسانه، فقد كان كل من الأجلّاء البررة: عبد الله بن عمر، وأبي هريرة، وأنس بن مالك، وأبي سعيد الخدري، وأبي موسى الأشعري...؛ وأم المؤمنين الصديقة عائشة... رضي الله عنهم أجمعين فرسان هذا الميدان المبارك... ولم يكن سعد فيهم لانشغاله فيما أسلفنا ولتقدم استشهاده... رضي الله عنه.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر ـ عليه رحمة الله ـ «فيمنْ روى عنه من كلامه سعد بن معاذ وعبد الرحمٰن بن عـوف، وأنس ابن مالك»[1].

غير أني وقفت ـ أثناء جولاتي في آثار القوم، رضي الله عنهم ـ على خبرين رُويا عن سيدنا الجليل سعد بن الربيع رضي الله عنه أحدهما:

١ ـ في كتاب المعرفة والتاريخ، لأبي يوسف يعقوب بن سفيان البسوي قال: «حـدّثنا عيسى بن محمـد، قال: أخبـرنا الحسن بن أعين الحـرّاني، قال: حدّثنـا سعد بن عبـد الرحمٰن بن أبي أيوب الأنصاري، عن جدته أمّ سعدٍ بنت سعد بن الربيع قالت: مَسَحَ رسول الله ﷺ وجهي، فكانت تقول: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: «إنَّ العقيقَ لوادٍ مباركٌ»[2].

وقد ذكر ابن حبان ـ رحمه الله ـ رجال إسناد هذا الحديث في «الثقات».

وأما كيف تروي عن أبيها بلفظ سمعت أبي ـ وقد استشهد أبـوهـا وهي حَمْـل فهـذا من مـراسيـل الصحـابـة، والله أعلم.

---

(١) تعجيل المنفعة: ١٤٧.
(٢) المعرفة والتاريخ: ١/٢٨١، وقد أخرج هذا الحديث البخاري من طريق (آخر) من حديث عمر. . .

٢ ـ روى الحافظ ابن حجر في الإصابة في ترجمة (جميلة بنت سعد بن الربيع الأنصاري[١]... استشهد بأحد.. تقدم نسبها، لها صحبة... «روت عن أبيها...»[٢].

فالحافظ ابن حجر ـ إذن ـ يصرّح بروايتها عن أبيها...

٣ ـ ذكر الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ في ترجمة: (الربيع الأنصاري قال: «٢٥٨٦ (الربيع) الأنصاري.. روت عنه ابنته أم سعد أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال:

«سوءُ الخلقِ شُؤْمٌ، وطاعةُ النساءِ ندامة، وحُسْنُ المَلَكَةِ نَماءٌ». أورده ابن منده[٣].

وفي كلامي على أسرة سعد بن الربيع ـ رضي الله عنه ـ قررت أن أباه (الربيع) هلك في الجاهلية فلم يدرك الإسلام، وذكرتُ موجبات رأيي ـ في موضعه، وما زلت على ذلك ـ وعليه فهذا (الربيع) ليس والد سعد المعنى بترجمته الآن...، ومع ذلك فالسند غير مستقيم ولو اعتبرنا الجدَّ أباً... مجازاً، أو على طريقهم..؛ إذ يطلقون الجدَّ ويعنون الأبَ.

ويعضد رأيي هذا نص أورده ابن عبد البر في ترجمته للربيع

---

(١) زاد ابن حجر ـ رحمه الله ـ بعد لفظه الأنصاري كلمة (الليثي)؟؟؟، وما أظن أنه يعني غير سعد هذا والله أعلم.

(٢) الإصابة: ٢٦٣/٤. القسم الأول رقم الترجمة (٢٣٥).

(٣) الإصابة: ٥٠٥/١. القسم الأول رقم الترجمة (٢٥٨٦).

الأنصاري، وهو غير والد سعد، صاحبنا قطعاً. حيث قال: «الربيع الأنصاري، لا أقف على نسبه...»[1] في حين أن الربيع والد سعد معروف نسبه حتى قحطان... وقد ذكره ابن عبد البر لمّا ترجم لسعد بن الربيع صاحبنا ـ فهذا غير ذاك والله أعلم.

وثمة مروية أخرى، للحافظ ابن حجر ـ نفسه ـ في الإصابة ـ أيضاً ـ لعلّها تحلّ شيئاً من العقدة... أو تزيل بعض الإشكال. حيث أخرج الربيعَ والدَ سعد من بين الصحابة[2]. إذ ترجم له في القسم الرابع[2] وقد ذكره بنسبه الصريح قال:

«٢٧٤٩ الربيع بن عمرو بن أبي زهير الخزرجي الأنصاري والد سعد بن الربيع.. استدركه ابن فتحون، وحكى عن مكي بن أبي طالب، أن سعد بن الربيع لمّا استشهد بأحد ترك (ابنتين) فضم أبوه (كذا) ماله كله، فأتت أمهما للنبي ﷺ، فنزلت: «يوصيكم الله في أولاكم...» انتهى. والمعروف ـ (الكلام لابن حجر لم يزل) ـ أَنَّ الذي ضمَّ ما لهما هو عمهما ـ وهو الصواب.

وروى ابن مندة من طريق عنبسة بن عبد الرحمٰن، عن محمد بن زاذان، عن أم سعد بنت سعد بن الربيع عن أبيها ترفعه، «طاعة النساء ندامة...» والصواب عن أم سعد بنت

---

(١) الاستيعاب: ٥١٨/١. كذا ولعلّها لم أقف على نسبه، والله أعلم.

(٢) وهذا ما يعضد رأيي في أن أبا سعد لم يدرك الإسلام... مع جملة ما سقته من الأسباب، انظرها في موضعها ص (٦٤، ٦٥).

سعد بن الربيع . . . (ز)»[1][2].

---

(١) الإصابة: ١/٥٢٩ ـ ٥٣٠.

وفي هذا السند عنبسة بن عبد الرحمٰن، متروك، وشيخه محمد بن زاذان ضعيف ومتروك أيضاً. والله أعلم. على ما أنت واجد فيه من اضطراب وتداخل واختلال. . . ووهن في الرواة. . .

ولم يكن الالتفات إلى هذه الناحية من شأن بحثي، لكني ألزمت نفسي ألا أغادر ـ ما استطعت ـ صغيرة ولا كبيرة، تخص سعد بن الربيع ـ عليه الرضوان ـ إلا أحصيتها. . .

(٢) نخلص من ذلك أن هذا الحديث ترويه أم سعد عن أبيها سعد بن الربيع ـ صاحب الترجمة ـ وليس عن جدها الربيع، لأنه لم يدرك الإسلام على ما بيّنا، وصوّبه الحافظ ابن حجر، رحمه الله. . . والله أعلم.

ولا يمكن روايتها عن أبيها مباشرة ـ بالطبع ـ فتكون بالواسطة ليستقيم الكلام، ولم يصرّح بروايتها عن أبيها غير ابن حجر، فقد تفرّد في ذلك.

الخاتمة

تلكمُ صفحات مشرقة، وضيئة، مشرّفة، من حيـاة ذلك الصحابي الجليل، البطل، النقيب، الشهيد، السعيد: سعد ابن الربيع الأنصاري، رضي الله عنه وأرضاه. وقفنا من خلالها على عظمة الإسلام والإيمان من خلال رجلٍ شرحَ الله صدره، ونوّر قلبه وبصره حقيقة الدنيا، فزهِدَ فيها، وهي في أشدّ إقبالها عليه وعرّفه الآخرة وحقيقتها فَجَهد نفسه لنيلها، وأَجهدها لبلوغ أسمى درجاتها، فكان من المقبولين المحظوظين... الفائزين...

انتظم في سلك الجماعة المؤمنة بالله ربّاً، وبمحمدٍ - ﷺ - رسولاً ونبياً، وبالقرآن الكريم دستوراً وإماماً.. وبالجهاد طريقاً لعزّ الدنيا وسعادة الآخرة.. فلمّا فتح لهم رسول الله ﷺ باب الجهاد.. وجدت الأبطالَ الميامين...

باع نفسه لربه، وعاهد الله - يوم بايع رسول الله - على أن تكون كلمته هي العليا... وقضى في سبيل ذلك.. رضي الله عنه وأرضاه.

وإذا كنا قد ألممنا - فيما مضى من صفحات - بشيء من سيرة هـذا الصحابي البـطل... وكيف فهم الدعـوة إلى الله..

فاعتنقها، وقدّم روحه الزكية، في سبيلها. . . وعرف أَنَّ الإسلام طريق الخير والعدل والفلاح، والسعادة في الدارين. . ، فما أحرانا أن نتأسّى بسير أولئك الأبطال ـ بعد رسول الله ـ ﷺ ـ .

وإذا كنا قد عشنا هذه الحياة الحافلة بالبذل الصادق والعطاء السخي، فإننا نود أَنْ نقول للدعاة إلى الله. . في كل زمان ومكان. . إنَّ لنا صَحْباً كراماً، يحقُّ أن نزهوَ بهم وبسيرتهم. . . ونتيه بخبرهم، ولكن لا ينبغي لنا أن نبقى على ضفاف هذا الزهو والتيه، فتلك سيرة تلوناها. . للتأسي، والاقتداء والاتباع. . .

فجزى الله سعد بن الربيع خيراً، كفاء ما قدّم، وبذل، وضحّى ورضي الله عنه في الشهداء السعداء الفائزين. . . ووفقنا لفهم تلك المعاني السامية كما فهمها. . . وتطبيقها كما طبّقها ورزقنا التأسي به في القول والعمل، وحشرنا في زمرته تحت لواء سيد المرسلين ـ ﷺ ـ وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

والحمد لله رب العالمين

ثبت بأهم مصادر البحث ومراجعه

١ ـ القرآن الكريم، والحديث الشريف.

٢ ـ أحكام تمني الموت: الشيخ محمد بن عبد الوهاب، تحقيق الشيخ السدحان وزميله عن مصورة المكتبة السعودية بالرياض.

٣ ـ أساس البلاغة: الزمخشري، تحقيق: عبد الرحيم محمود، دار المعرفة بيروت ١٣٩٩ هـ.

٤ ـ أسباب النزول: النيسابوري، عالم الكتب بيروت، مصورة.

٥ ـ الاستبصار في نسب الأنصار: ابن قدامة تحقيق: علي نويهض دار الفكر: ١٣٩٢ هـ.

٦ ـ الاستيعاب: ابن عبد البر (على حاشية الإصابة) مصورة دار العلوم الحديثة عن الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨ هـ بمصر.

٧ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الأثير.

٨ ـ الإصابة في تميز الصحابة: ابن حجر العسقلاني، مصورة دار العلوم الحديثة عن الطبعة الأولى سنة ١٣٢٨ هـ بمصر.

٩ ـ أصول الحديث ـ علومه ومصطلحه: د. محمد عجاج الخطيب الطبعة العاشرة، دار المعارف ١٤٠٨ هـ.

١٠ ـ ألف باء: الحجّاج يوسف البلوي، عالم الكتب، مصورة عن طبعة الوزير: محمد توفيق باشا، ولي عهد الخديوية تصحيح مصطفى وهبي ١٢٨٧ هـ.

١١ ـ إلقام الحجر لمن زكّى سابّ أبي بكر وعمر: السيوطي، تحقيق مصطفى عاشور، مكتبة الساعي الرياض ١٤٠٩ هـ.

١٢ ـ الباعث الحثيث: ابن كثير، دار الفكر.

١٣ - البداية والنهاية: ابن كثير، تحقيق د. أحمد ملحم وزملاؤه، الطبعة الرابعة دار الكتب العلمية بيروت، ١٤٠٨ هـ.
١٤ - تاريخ (الطبري): الطبري.
١٥ - التجريد الصريح: الزبيدي، مصورة دار المعرفة مطبعة موسى الطرر ١٣٤٧ هـ.
١٦ - تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة: الحافظ ابن حجر. الطبعة الأولى، حيدر آباد الدكن ١٣٢٤ هـ.
١٧ - التفسير الكبير: الإمام الفخر الرازي، مصورة إحياء التراث العربي بيروت عن الطبعة المصرية، بالمطبعة البهية.
١٨ - جمهرة أنساب العرب: ابن حزم.
١٩ - حلية الأولياء: أبو نعيم أحمد عبد الله الأصفهاني، نشر دار الكتاب العربي الطبعة الخامسة، بيروت - ١٤٠٧ هـ.
٢٠ - حياة الصحابة: محمد يوسف الكاندهلوي، تحقيق الشيخ نايف العبّاس ومحمد علي دولة دار القلم.
٢١ - ديوان ابن حجر العسقلاني: جمع وتحقيق، د. السيد أبو الفضل... الجامعة العثمانية بحيدر آباد الدكن ١٣٨١ هـ.
٢٢ - ديوان أبي الفضل الوليد (إلياس عبد الله طعمه)، دار الثقافة الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨١ م.
٢٣ - ديوان حسان بن ثابت الأنصاري: صححه عبد الرحمٰن البرقوقي، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠١ هـ.
٢٤ - ديوان الشوقيات: أحمد شوقي، دار الكتاب العربي الطبعة العاشرة بيروت ١٤٠٤ هـ.
٢٥ - ديوان دريد بن الصمة: تحقيق محمد خير البقاعي، ١٤٠١ هـ دار قتيبة.

٢٦ - الروض الأنف.
٢٧ - سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب: البغدادي، مصورة مكتبة الرياض الحديثة.
٢٨ - السيرة الحلبية، المسماة: إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون: علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٣٤٩ هـ.
٢٩ - السيرة النبوية: ابن هشام، تحقيق نخبة من العلماء.. دار الفكر القاهرة.
٣٠ - السيرة النبوية: أبو الحسن علي الندوي، الطبعة الثالثة - دار الشروق جدة ١٤٠١ هـ.
٣١ - شرح الصدور، بشرح أحوال الموتى والقبور: السيوطي مطابع الرشيد المدينة المنورة ١٤٠٣ هـ.
٣٢ - شعر الحرب في الجاهلية بين الأوس والخزرج: د. محمد العيد الخطراوي الطبعة الأولى مؤسسة علوم القرآن، دار القلم دمشق.
٣٣ - شهداء الإسلام في عهد النبوة: د. سامي النشار، مكتبة أسامة بن زيد بيروت ١٤٠٢ هـ.
٣٤ - صحابة رسول الله ﷺ، في الكتاب والسنّة: عيادة أيوب الكبيسي الطبعة الأولى، دار القلم، دمشق ١٤٠٧ هـ.
٣٥ - صحيح الإمام البخاري.
٣٦ - صحيح الإمام مسلم.
٣٧ - صفة الصفوة: ابن الجوزي، تحقيق محمود الفاخوري، والقلعه جي، دار المعرفة بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٦ هـ.

٣٨ ـ صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم بيروت ١٤٠٢ هـ.
٣٩ ـ الطبقات الكبرى: ابن سعد، تقديم إحسان عباس، دار صادر بيروت.
٤٠ ـ العقد الفريد: ابن عبد ربه، تحقيق محمد سعيد العريان، مصورة مكتبة الرياض الحديثة.
٤١ ـ العواصم من القواصم: ابن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب... والأستنبولي.
٤٢ ـ غزوة أُحُد: محمد أحمد باشميل، دار الفكر.
٤٣ ـ فتح الباري: ابن حجر، تحقيق محب الدين الخطيب، إشراف الشيخ عبد العزيز بن باز.
٤٤ ـ في ظلال القرآن: سيد قطب دار العلم للطباعة ودار الشروق، الطبعة الثانية عشرة جدة ١٤٠٦ هـ.
٤٥ ـ القاموس المحيط: الفيروز آبادي، مصورة دار الجبل بيروت، عن طبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة ١٩٥٢ م.
٤٦ ـ لسان العرب: ابن منظور الأفريقي: طبعة دار صادر بيروت.
٤٧ ـ المحبر: ابن حبيب البغدادي ـ تحقيق د. ايليزة ليختن، منشورات دار الآفاق بيروت.
٤٨ ـ مختصر تفسير ابن كثير: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت.
٤٩ ـ مختصر فضائل المدينة: د. خليل إبراهيم ملا خاطر، مكتبة الطالب الجامعي ١٤٠٩ هـ.
٥٠ ـ مختار الصحاح: الرازي، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان ١٩٨٦ م.

٥١ ـ المدينة بين الماضي والحاضر: إبراهيم بن علي العياشي، المكتبة العلمية المدينة المنورة ١٣٩٢ هـ.
٥٢ ـ معجم الأوسط: الطبراني، مخطوط.
٥٣ ـ معجم ما استعجم من أسماء البلدان والمواضع: عبد الله ابن عبد العزيز البكري الأندلسي، حققه مصطفى السقا، طبعة عالم الكتب..
٥٤ ـ المعرفة والتاريخ: الفَسَوي، تحقيق د. أكرم ضياء العمري طـ (١) المدينة المنورة ١٤١٠ هـ.
٥٥ ـ معرفة الصحابة: لأبي نعيم، (مخطوط).
٥٦ ـ من عاش بعد الموت: الحافظ عبد الله بن أبي الدنيا، الطبعة الأولى، دار الكتب بيروت ١٤٠٧ هـ.
٥٧ ـ المنتقى من منهاج الاعتدال: مختصر منهاج السنة النبوية، اختصره الإمام الذهبي، تحقيق محب الدين الخطيب، طبع بإشراف الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد الرياض ١٤٠٩ هـ.
٥٨ ـ منزلة الصحابة في القرآن: محمد صلاح محمد الصاوي، دار طيبة الرياض.
٥٩ ـ المغـازي: للواقدي، دار صادر.
٦٠ ـ نساء الأنصار: عبد المنعم الهاشمي، دار الهجرة، الطبعة الأولى بيروت ١٤٠٨ هـ.
٦١ ـ وحي القلم: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت.
٦٢ ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى: السمهودي، دار إحياء التراث الطبعة الثالثة، بيروت ١٤٠١ هـ.

الفهـرس

هذا الرجل ٥
المقدمة ٩
خطة البحث ١٥
التمهيد ١٩
أولاً: الصحابة رضي الله عنهم ٢١
ثانياً: الإسلام قبل الأنصار ٣٢
الفصل الأول: شخصية سعد بن الربيع ٣٩
المبحث الأول: بيئته ٤٣
المبحث الثاني: قومه الأنصار ٥١
المبحث الثالث: نسبه وشخصيته وأسرته ٦٣
الفصل الثاني: جهوده في حقل الدعوة ٧٥
المبحث الأول: مقدمة في إسلامه ٧٧
المبحث الثاني: الدعوة والنِّقابة والبيعة ٨٦
المبحث الثالث: سعد بعد الهجرة؛ دياره والإخاء في الله ١٠٣
الفصل الثالث: جهاده واستشهاده ١٢٩
المبحث الأول: بدر وسعد الجندي المجهول ١٣١
المبحث الثاني: أحد: يوم الملحمة وسعد مستشار رسول الله ١٣٨
المبحث الثالث: استشهاده ١٤٥
الفصل الرابع: مكانته وروايته ١٦١

المبحث الأول: منزلته ومناقبه ١٦٣
المبحث الثاني: ما رُوي عنه من أحاديث ١٧٦
الخاتمة ١٨١
المصادر والمراجع ١٨٣
الفهرس ١٨٩